

أبريل 2014

400

الحضارة أمي

رواية

تأليف: إدريس الشرايبي
ترجمة: سعيد بلمبخوت
مراجعة: أ. إيمان خالد المسلم



الحضارة أمي

رواية

تـــألـــيـــف: إدريس الشرايبي

تـــرجـــمـــة: سعيد بلمبخوت

مـــراجـــعـــة: أ. إيمان خالد المسلم

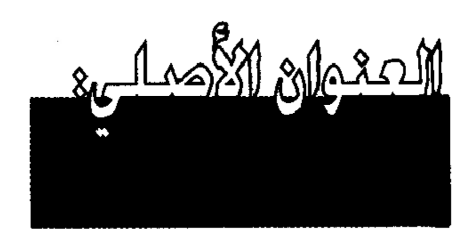


تصدر كل شهرين عن
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

www.nccal.gov.kw
ebdaat_alamia@nccal.gov.kw
ebdaat_alamia@yahoo.com

رقم الإيداع: 2014/152
ردمك: 978-99906-0-419-1

• الحضارة أمي
رواية



La Civilisation, ma Mère!...

Driss Chraïbi.

الطبعة الأولى - الكويت
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2014م
إبداعات عالمية - العدد 400

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م
تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني
(1990 - 1923)

مقدمة

من النظرة الأولى على عنوان رواية «الحضارة أمي»، للكاتب المغربي إدريس الشرايبي، تثير انتباهنا كلمتان خفيفتان على اللسان وعزيزتان على القلب هما: الحضارة، التي نتوق إلى التمسك بركابها، والأم الحنون التي نأمل التوسد بحنانها.

سيرجع بك الكاتب، عبر الكلمات، من أغوار الطفولة البريئة إلى أحلام المستقبل، وسيطوف بك حول العالم. وذلك قبل أن يحكي عن أمه تفاصيل مشوقة. ما بين الجدران، داخل الدار التي تسكن فيها تلك المخلوقة، التي دخلت إليها زوجة، وبقيت هناك قابعة بين حيطانها، تحرق الزمن بالأشغال اليومية، ترعى وهي راضية، الزوج والأبناء.

يأتي الراوي، ليسلط عليها الضوء، فيحكي عن أمه ببراءة طفل وبكل التفاصيل. يوصفها بكل حنانها، ويحكي عن إنسانيتها. وكيف كان أطفالها يكبرون، وتكثر معهم أموال الزوج، يتغير العالم، وكان عليها أن تتغير بدورها.

وكان يتعين فعل شيء ما، لإخراج تلك الأم من قوقعتها؛ فيتفق الأخ مع أخيه ليظهرا لها ما يوجد خارج البيت. وها هي تكتشف العالم الخارجي. وتبدأ في فتح عينيها لتقارن، عالمها وسط العالم الآخر المجهول، فكان يجب أن تتعلم كل شيء، لتعرف كل شيء.

بأسلوب ساخر سترحل مع الكاتب، رفقة أمه وأخيه نجيب والأب إلى فترة زمنية من الفترات، حيث كانت فيها البلاد تحت وطأة الحماية الفرنسية.

ومــاذا عن الآلات الجديدة التي دخلــت إلى الدار وإلى عالمها:
«كانــت هنــاك هادئة، تتأمل ذلك الشــيء المكون من الباكليت بين يديهــا الذي في اســتطاعته إنــارة العالم. كانــت فرحتها عارمة، كحفيف البحر عندما يســطع على ســطحه أول خيط من أشعة الشفق، من موجة إلى موجة، ومن أفق إلى أفق. ويمكن أن أقسم كأنه صوت نورس يصدح: «ها هو! الساحر أتى!».

دخل الإفرنج بثقافتهم وأسلوبهم في الحياة، أمام أعين أبناء البلــد الذيــن ســحبت الســيادة من تحــت أقدامهــم. كان الكاتب يقارن بين أســلوب حياة تقليدي وآخرآت من الغرب، انبهر وقلّد من كان قريبا، وقاوم البعض وتقوقع الباقي.

كان يحكــي عن الأم، ويتكلــم بنبرة أخرى عن الحضارة: «كلما فتح بــاب لتاريخ الرجال وحضارتهم فــإن الحضارة تغير نبرتها، وتكســر شــوكتها فــي غابــة مــن الحديد الصلــب، من النــار ومن المعاناة. لكنه كان العالم الخارجي، ليس خارجيا بالنســبة إليها، كمــا كانت، لكنــه يتعلق بصفاء حلمها وســعادتها منذ الطفولة. هــذا هو الكنــز الذي ورثته منهــا، كالماء الرقراق مــن بئر عميقة جــدا، لا تشــوبه قطــرة حــزن... إنها قيمــة الصبر وحــب الحياة الراسخ في الروح».

كانــت وبقيت على حالها: بســيطة وصافيــة، مضحكة ودائما حنونة.

لــم يكن اختيار إدريس الشــرايبي المغامــرة الأدبية عوضا عن المغامــرة العلميــة بالمصادفــة، كان مهندســا فــي الكيميــاء. كان اقتناعــه المبكر بقيمــة التخيل والإبداع كبيرا، فضحى بشــهادته

مـن أجـل الكلمة. ليحكـي، وليشـارك الآخـر، وكان متمردا ضد الكل: ضد سلطة الحماية، الظلم الاجتماعي وضد الجمود.

لم يكن إدريس الشـرايبي يحب الشـهرة، ورغما عنه لم يسلم منها. لكن هذه الشهرة لم تجرفه بعيدا عن الحياة التي اختارها. حياته الأدبية مع حياته الأسرية.

كان إسـهامه الأدبـي يعتبر نموذجا راقيا يمـزج بين الثقافات، وشمعة تضيء الطريق لأدب مغاربي مكتوب بلغة فرنسية، والأدب بشكل عام. كان من الأوائل الذين وظفوا مبكرا خصائص الرواية الأمريكية المتميزة بالسـرعة وانتقاء الشخوص المفعمة بالحركة والإيقاع الحي والمتنوع.

قال إدريس الشـرايبي: «أحب الأشـياء المضبوطة... ودراسـتي الكيميـاء أفادتنـي كثيـرا في كتاباتـي، أحب الجمـل الدقيقة لا الجمل المائعة العائمة».

عندمـا سـئل المفكر المغربـي عبداللـه العـروي، ذات مرة، عن ازدواجية اللغة في الأدب، ولماذا يكتب بعض الأدباء المغاربة باللغة الفرنسية، أجاب بعبارات قليلة لكنها حكيمة قائلا: «المهم ألا نفكر فرنسـيا». إدريس الشـرايبي كان واحدا من هؤلاء الكتاب الذين، علـى الرغـم من تشـبثهم باللغة الفرنسـية، ظلـوا لصيقين إلى حـد الزهد بالهوية العربية المغربيـة الأصيلة، معتبرا أن الكاتب عندما يلجأ إلى الإبداع باللغة الفرنسية غير مدعو - بالضرورة - إلى تبني حمولتها التاريخية والقومية والأيديولوجية.

كنت أراه يتمشى بتأنٍ في شوارع وزقاق مدينة الجديدة، أرجعه الحنـين بعد طول غياب. وقتما تلاقيـه، كان بكل تواضع يبادلك

التحية، يتجول ليأخذ جرعة الهواء بين دروب طفولته، ويرجع بخطوات متثاقلة على رمال الشاطئ نحو الفندق، في غرفته في النزل قبالة أمواج المحيط الأطلسي يتابع كتابة أحد فصول رواية.

قبل اشهر من وفاته، كأنه جاء ليودع مسقط رأسه، كان الكاتب إدريس الشرايبي يحضر احتفالا أقيم على شرفه في مدينة الجديدة، وكنت حاضرا. عبر فيه عن سعادته وتأثره بالحفاوة التي تتسم بالبساطة و«غياب لغة الخشب وحضور المسحة الإنسانية المنبعثة من الإنسان تجاه أخيه الإنسان»، وأضاف مفسرا سبب سعادته: «لقد جئت لأعانق مجددا جذوري العميقة والأمكنة التي ولدت فيها وأمضيت طفولتي، والمحيط الأطلسي والعصافير التي ربما هي نفسها التي كانت قبل ثمانين سنة». فيما سجل المرحوم عبدالكبير الخطيبي، خلال ذلك اللقاء، أن رجوع الشرايبي من حين إلى آخر إلى الجديدة يعكس ارتباطا وجدانيا بالتاريخ والذاكرة. وتوقف أيضا عند التداخل الثقافي الذي يثري الكاتب، وبعض سمات أعماله السردية كالشخوص المفعمة بالحركية، والجمل المتسمة بالسرعة والإيقاع.

بأسلوبه الساخر يضحك على ذقون العادات والسلوكيات البالية في مجمعه، من دون أن يفقد صرامة المهندس الكيميائي. إدريس الشرايبي المرح، كانت هي الصورة التي ترسخت في أذهان قرائه.

كان حريصا على أن يعود إلى مسقط رأسه، إلى الأرض التي بعثته سفيرا للغرب، التي رأى النور فوقها وليدفن في ترابها «ها هي الجنة التي كنت أعيش فيها سابقا: البحر والجبل. إنها

السعادة بمعنى الكلمة، قبل العلوم وقبل الحضارة والوعي. كم تمنيت العودة إلى هناك، أن تكون آخر أيام عمري في ذلك المكان».

قال إدريس الشرايبي، مستجوبا في ظل الاستعمار الفرنسي: «لقد لزمتني عشر سنوات لأذهب إلى أقصى تمردي. أنا، أذهب دائما إلى نهاية المطاف، إذ لا أتنازل عما أومن به».

في أحد استجواباته التلفزيونية، أتذكر كلمة قالها: «كم تمنيت أن أكتب باللغة العربية».

كان ذلك دافعا لأفكر في ترجمة هذه الرواية، مع الحرص على كتابة تلك الكلمات التي كان سيخطها إدريس الشرايبي لو تكلم بلسان عربي.

يحتفي القراء بابن البلد هذا، والدليل أن كتب إدريس الشرايبي تأتي على رأس مبيعات الروايات المكتوبة بالفرنسية في المغرب.

عاش متمردا ومات وفيا لتلك المغامرة الكبرى التي جعلت منه فاتحا لبلدان وجغرافيات، فأوصلته الكتابة إلى مرتبة لم يصل إليها أصحاب لغة موليير عينهم. ترك الكاتب إرثا أدبيا كبيرا، وكان الإرث مطبوعا بالحرية، وغير مرتبط بعار الولاءات.

رواية «الحضارة أمي»، جاءت للبحث عن الإجابة المقنعة لسؤاله الوجودي، حيث يحاول الابن مساعدة أمه للخروج من عزلتها. بدأت تتحرر تدريجيا من خوف زوجها الذي لم يكن شريرا أو مستبدا، بل كان متشبثا بالتقاليد. تعرفت على محيطها والمجتمع وتصيح بأعلى صوتها في وجه الجميع. أربع شخصيات رئيسية: الأم، والأخ نجيب، والأب، والراوي، في فترة كان فيها البلد تحت وطأة الحماية الفرنسية. فترة رأى

فيهـا الراوي التحـولات في مختلف المجـالات، كانت أمه بدورها تعيـش الفترة، كانـت لها حواس وأفكار. المؤثـرات المحيطة تركت مفعولهـا طبعـا. من طفلة يتيمـة خادمة في البيـوت إلى زوجة رجـل برجوازي. الرجـل البرجوازي كان هو والـد الراوي. وبينما كان الـزوج غارقـا فـي أعماله بعيدا عن الأسـرة، يتدخـل الأبناء ليخرجـوا أمهم المحبوسـة فـي الدار كمـا تحبس جـل الأمهات. فعلموها كيف تلبس لباسـا عصريا، أخرجوها إلى الأماكن التي لم ترها أبدا، على الرغم من أن تلك الأماكن المجهولة كانت جد قريبة منها، خرجت فرأت كل المدينة، ثم كل أرجاء البلاد.

فـي الجزء الثانـي من الروايـة يتغير الـراوي. الابن الصغير ينتقل إلى فرنسـا للدراسـة، ويبقى بقربها نجيـب، ولدها البكر الـذي قاطع الثانوية مبكـرا ليتعلم الحياة بطريقة أخرى. وبعد الفـراق وآلامـه المرة، حينما سـافر الـراوي، تتعلـم الأم القراءة والكتابة، وتتعلم الحياة. بدأت تعرف العالم عبر كل الوسائل، من تلك الوسائل المذياع الذي يدخل إلى بيتها، فبدأت عبره تتابع ما يجري في العالم. حصلت على الشـهادات، وانخرطت في العمل السياسـي والاجتماعي. تمردت. فكانـت تبحث عن حريتها وعن حرية كل النسـاء. في أثناء الحرب العالمية كانت تجوب البلد من أجـل تحريض النسـاء. اسـتطاعت أن تسـافر طـولا وعرضا، ثم إلـى الخارج لتلتحـق بولدها رفقة نجيب. وهكذا اكتشـفت عالما غريبا بلا ضمير، كانت الدول الكبرى تستغل قوتها للهيمنة على العالم، وبعدها كانت الحرب العالمية تحصد الأرواح.

بعد طول معاناة استسلم الزوج لتغيراتها. وندم على حبسها

طوال تلك السنين. فبدأ يدعمها بماله لكي تقوم بأنشطتها السياسية. كان يستقبل الضيوف والزعماء السياسيين.

«هل قلت إن أمي كانت خائفة على ما يقع في العالم؟ لا، أليس كذلك؟ لم تكن خائفة مطلقا من الكلمات. وراء الكلمات، كانت تبحث عن الحقيقة ثم، وراء نكران الذات، كانت لا تجد أحدا. كانت تدق كالماء على أبواب الأحزاب: هولا ! هل يوجد أحد هنا ؟ كانوا مضطرين ليفتحوا لها، ثم عندما يفتح الباب، كان يتعين الإجابة عن تساؤلاتها. كان في استطاعتها إرجاع الكلمات حتى أحشائها، كجلود الأرانب. البيانات، الإحصائيات! أمي تدعم. أعطوها لي وسأكتب رواية بوليسية أو حكاية بلا معنى، وفق الاختيار. لا شيء، هل تسمعون؟ لا شيء يمكن أن يصمد أمام هذا العري الفاضح للرجال الفقراء العجزة والذين يريدون الكرامة الآن وليس غدا.

توشوش مع الديموقراطيين، المحافظين، وهؤلاء الذين تسميهم «التقدميين الذين يجرون إلى كل الاتجاهات»، بكل كياسة، من دون كثير من التألق. أبي كان هناك يرافق الزعماء يعدهم بدفع فلوسه لصناديقهم الانتخابية. وأنا كنت أضحك، كان ذلك يثير بهجتهم، وكنت لا أدري لماذا.

المترجم

ولد إدريس الشرايبي العام ١٩٢٦ في مدينة الجديدة بالمغرب. درس العربية والفرنسية ثم الكيمياء في باريس. كتب لمدة ثلاثين سنة للإذاعة، وخصوصا لإذاعة «فرانس كيلتير». لمدة عشرين سنة، يسافر ويحاضر في العالم بأسره (*).

(*) تقديم الكتاب في السبعينيات.

إلى أ. زويتن (أمي)
إلى شنة (أختي)
وإلى فرانسيس أنطوان (صديقي)

هل صحيح أن الإنسان في آخر المطاف باستطاعته
التحكم في كل العالم، باستثناء التحكم في نفسه؟

ليستر وارد
LESTER WARD
ديناميك سوسيولوجي
DYNAMIC SOCIOLOGY

الجزء الأول

كيف كانت

1

ها هي الجنة التي كنت أعيش فيها فيما مضى: البحر والجبل. إنها السعادة بمعنى الكلمة، قبل العلوم وقبل الحضارة والوعي. كم تمنيت العودة إلى هنا، وأن تكون آخر أيام حياتي في هذا المكان.

ها هي الجنة التي كنا نعيش فيها أيام زمان: شجرة متحجرة، جبل شديد التحدّر يغرس جذوره عميقا في أحشاء البحر. الأرض بكاملها، والإنسانية من ضمنها، تروي حياتها بالماء. المحيط يقتحم السماء على طول الجرف حتى القمم، وعلى طول أشجار الأرز الشامخة.

حصان أبيض يركض ويتمايل على الشاطئ، إنه حصاني. في الأفق، زوجان من طيور النورس يحلقان في السماء، وتأتي موجة من أعماق الماضي، ويتأنٍ تتدحرج على رمال الشاطئ، وبقوة تنكسر. وتفجر معها الذكريات كما تنفجر كثير من الفقاعات في الرغوة البيضاء.

معاناة ومرارة في سبيل الكفاح من أجل - تقريبا - لا شيء: من أجل أن نكون ومن أجل الحصول على شيء، من أجل عمل

وتحقيق وجودنا، كل شيء، نعم، كل شيء أباده صوت البحر. وحدها أحزان الأمس العميقة، بقيت في مكانها عندما كان يتعين الرجوع إلى نقطة البداية لإعادة النظر. ميلاد للذات وميلاد للعالم.

تأتي موجة أخرى تسطع فوق الأولى وتتلألأ وتجري كحياة جديدة. بلا عدل، تفيض الأمواج على ضفاف الزمن، من الأزل إلى الأزل، وأمواج أخرى تولد وتموت، تُحجب وتتجدد، تضيف حياتها إلى الحياة. ومنذ ذلك العهد ونحن نسمع صوتها، دائما بالنبرة نفسها ، تردد الكلمة نفسها: سلام.. سلام.. سلام.

2

أعود من المدرسة، أرمي حقيبتي في الدهليز وأصيح بصوت الدلال «الشعبي» بعبارات فرنسية:

- بون جور أمي.

كانت هناك، تؤرجح الرِّجْل على الأخرى، واقفة تراقبني بحنان من خلال كرتين صغيرتين بلون أسود: عينها كانت صغيرة، وديعة وهادئة، وتصورتها كائنا خفيف الظل يركن بين المقررات - في حقيبتي - التي تتعلق بالعلوم الطبيعية والحضارة.

- وجبة سريعة، يقول أخي نجيب، أفتح كسرة الخبز وأضع ماما بداخلها، ها ها ها! لكن لكونها جد نحيفة، من الأحسن أن تضيف قطعة من الزبدة، ها ها ها، يقهقه أخي بأعلى صوته.

كان يحب أمه. لم يتزوج قط. بلغ طوله مترا وثمانين سنتيمترا في عمر الثانية عشرة. ومترين وعشرة سنتيمترات عند سن البلوغ. مقبل على الحياة واللهو، ينهض مع طلوع الشمس وينام عند غروبها.

- اسمع، يا بني، تقول لي أمي بتأنيب، كم من مرة قلت لك أن تغسل فمك عند عودتك من المدرسة؟

- أغسل يوميا فمي ماما. باستثناء يوم الخميس والأحد وأيام العطل. سأفعل حالا ماما.

- اخلع تلك الثياب التي تشبه ثياب الوثني!

- حسنا ماما سأفعل ذلك حالا.

- هيا اذهب يا صغيري! وأطع هذه المخلوقة، يختصر نجيب مطقطقا أصابعه. أطع مخلوقة حياة أيامك.

تتبع نجيب وتطارده بما تحمل من مناديل المطبخ، يهرب مقوس الدهر، مذعورا ويضحك.

اذهب لأنظف أسناني بالمعجون الذي صنعته أمي بنفسها. قامت بتحضيره، ليس لأنها تعرف الميكروب الذي يسوس الأسنان، لكن من أجل طرد أثر الكلمات الأجنبية التي تعلمتها في المدرسة، والتي أرددها في دارها. وكذلك لأنزع الزي العصري وألبس الثوب الذي نسجته وخاطته لي بيديها.

لا أريد أن أطيل الكلام عن تلك الخلطة التي تعد بها الصابون الأسود، تلك الخلطة التي تسهر أمي في إعدادها في قدر من الفخار. خليط من الرماد والفحم وزيت الزيتون، تطبخه لمدة يومين، بالنهار والليل. ومن أجل إعطائه نكهة، كنت أخاطر بإضافة عصير الليمون والعسل والقرفة وأي شيء آخر لتعطير هذا الخليط الذي كانت تفخر به أمي.

- عجيب.. يردد طبيب اللجنة المدرسية.عجيبة.. عجيبة هذه التشوهات على لثة الأسنان. من المؤكد أنها وراثية.

أما الملابس التي تصنعها، فحدّث ولا حرج، لأنه لا يمكن وصفها لكثرة عيوبها.

كان بودها أن تحصل على خروف وديع وحي، لجزّه أمام أعيننا.

من السوق، اشترى نجيب لها ما تطلب. أدخل الخروف إلى المطبخ يدفعه بكل قواه وهو يردد: ادخل - ادخل! لا تخف، افعل ما تشاء، كأنك في دارك.

هل قلت لكم إن أمي لها آلة لجز صوف الخروف؟ لا. أليس كذلك؟ ولكنها لم تكن تحسن استخدامها. على كل حال كان لديها مقص، وكانت تهددني به لقص أذنيّ وتعلقها بمسمار في فناء الدار عندما أتفوه بكلمات تغضبها. من عاش سنوات العشرينيات من القرن الماضي سيعرف شكل ذلك المقص الياباني، كأنه مقص بستاني أو حداد، في حالة ما إذا وقع على البلاط سوف يكسره بالتأكيد.

المقص في حزامها، تدور حول الخروف وتأمر أخي نجيب.

- هيا أحضِر الحبل!

تُمرر عقدة حول العنق، والأخرى في شباك النافذة. وفي تلك اللحظة تبدأ طقوس جز الخروف.

كان الحيوان يرقص بحركات عشوائية، يبعبع خائفا بأصوات غير متناغمة، وكل ما كان ينقصني هو المزمار. ضحكات نجيب تتردد في أرجاء الدار. فبدأت دقات الجيران تتوالى على الباب، ظنا أن الوالدة تضرب أولادا صغارا، ومع ذلك فأمي لم تفقد عزمها، وبكل ما تحمل من حزم وقوة، وبخطوات زعيم هندي أمريكي، أدارت ظهرها للخروف وهي تقول بصوت عال وبحروف متقطعة حتى يتمكن بدوره ذلك الحيوان القرني من فهمها:

- لا أحب الصوف. ليست سلعة، الصوف. بتاتا، بتاتا، بتاتا!.. لا نصنع أي شيء بالصوف، بوواه!

ثم فجأة تستدير، تنقض على الحيوان، ويبدأ المقص المثير في إصدار طقطقاته.

انهمكت في جز الخروف.

- هيا، هيا، هيا بسرعة! أحضر المكنسة، هات الصوف العالق في رجله، ها تراه؟ إنه هناك بين رجليه.

في نهاية النهار كانت كومة الصوف قد اكتملت ووضعت في الصندوق وأكياس من الجلد. كانت أمي تتصبب عرقا، وأخي نجيب قد شحت دموعه من كثرة الضحك. أما الخروف المسكين، فلا أحد أبدى رغبة في اقتنائه، حتى الجزار رفضه. بشكله وشروده، أصبح حيوانا لا يشبه الخرفان من كثرة ما عانى في أثناء عملية الجز، وكان يصدر صوتا أشبه بالمواء: الرحمة.. الرحمة!

- تعال يا أخي، يناديني نجيب وهو ينفث على أصابعه.

حمل الخروف على ظهره كأنه كيس طحين وصعد به إلى سطح الدار. هنا في السطح، سينعم بالشمس والهدوء، لكي يتعافى ذلك الخروف المسكين. في أثناء النهار تصعد أمي لتؤنسه ويؤنسها في الوقت الذي أكون أنا ونجيب في المدرسة. كانت تعطيه الشعير وخبز الذرة، وربطة النعناع، ودلوا من الحليب، وموزة أو بصلة كوجبة أخيرة للتحلية.

كانت تناديه «صغيري»، وتحكي له حكايات كالتي كانت تحكيها لنا. تغني له كأنه في جنة عدن وسط المروج الخضراء.

حينمـا اقتـرب عيـد الأضحـى، كان الفـراق جـد صعـب مع الكبش الذي طالما آنسـها في وحدتها. كانت تشـوي قطـع اللحم على النار وتسقيها بالدموع.

بعـد الجز كان عليها أن تغـزل الصوف قبل الحياكة. ألم أقل لكم إن أمي تحب ما تصنع بيديها؟ تصنع كل أشـياءها بنفسـها، لم أر إنسانا مثلها بتلك «الحداقة»، تستخدم أي شيء.

- اسمع يا بني، الآن أصبحت تتمكن من القراءة؟

- نعم يا أمي.

- وتستطيع الكتابة؟

- نعم يا أمي.

- إذن، أعطني لوحتك التي لم تعد تستعملها.

بـكل صبر وتأنٍ كرجل صيني مثابر، كانت تغرس دبابيس في تلـك اللوحـة. مـن دون مطرقة، لأنه لا توجد مطرقـة في الدار. بأصابعها، وأحيانا تكمل بأسنانها الصغيرة القوية.

بذلك المشط المسنن كانت تنفش الصوف، أثناء ساعات طويلة، حتى تصبح تلك الأكوام من الصوف صافية وناعمة.

مـن أجل الغزل لا تسـتعمل أشـياء إلا يديهـا وأصابعها بكل لطافـة وصبر، وقد تحسـبها تشـتغل بمئـات الأصابـع الحاذقة. كانت خيوط الصوف تبرم في كبة تكبر شيئا فشيئا، وتزداد الرزم مـع مر الأيـام. أثناء الغزل، تكلم نفسـها، تغني وتضحك كطفل سعيد لم يخرج قط من عالم الطفولة البريئة.

- كلما فتح باب، لتاريخ الرجال وحضارتهم فإن الحضارة تغير نبرتها، وتكسر شوكتها في غابة من الحديد الصلب، من النار ومن

المعاناة. لكنه كان هناك العالم الخارجي، ليس خارجيا بالنسبة إليها، ولِما كانت عليه، لكنه يتعلق بصفاء حلمها وسعادتها منذ الطفولة. هذا هو الكنز الذي ورثته منها، كالماء الرقراق من بئر عميقة جدا، لا تشوبه قطرة حزن، إنها قيمة الصبر وحب الحياة الراسخ في الروح.

أجلس أحيانا بجانبها، على ضوء الشمعة تبرم وتغزل. أكلمها عن يومي في المدرسة، أكلمها عن درس الرياضيات وفيكتور هيجو وعن حصة اللاتينية. كانت تخطف النظرات تجاهي من دون أن تنطق بكلمة. كانت يداها لا تتوقف عن مداعبة الصوف. كانت تعبر بيديها وليس بالكلمات.

كانت تأخذ أحيانا نعلي لتستعمله كمطرقة، تغرس أربعة مسامير في الحائط، لم ترسم قط بدقة مربعا كما تعلمت في كتاب الهندسة. كنت أحاول أن أساعدها في رسم المربع، لكن دون جدوى، تعمل ما ترى.

لم يعلمها أحد شيئا منذ مجيئها إلى العالم، في عمر ست سنوات كانت يتيمة، عملت خادمة، احتضنتها عائلة ثرية. في سن الثالثة عشرة تزوجها رجل ثري لم تره قبل زفافها. كان في عمر أبيها. إنه أبي.

أربعة من المسامير على الحائط وأصابعها، كانت تلك هي حرفة النسيج. ماذا عن التقنيات، وبرامج العقل الإلكتروني التي تخرق الفضاء والزمن. قال أحدهم إن الغد ليس للانتظار لكن للاختراع.

عندما يجد آخر خيط في النسيج، كانت أمي تأخذ مقاسي، بطريقتها طبعا. باستعمال بصرها، تغمض عينا وتفتح الأخرى

وتـدور حولي وتململ شـفتيها بصمت، وبين فينـة وأخرى تفرك يديها.

- حسنا، إني أرى الآن ما يلائمك، لا تتحرك.

تفـرد الثـوب على الأرض، تثبت أطرافـه الأربعة بقطع الخبز المحلـى؛ كان البيت مشـرعا ليدخل تيـار الهـواء. وبالطبع دخل اثنان من مواد الحضارة، الأول كان المقص والثاني آلة الخياطة.

مادامـت تقيس وتقطع، كان علـيّ أن أبقى في مكاني من دون حركـة أو كلام، لأن عينـي أمي كانتا على الثوب والمقص وعليّ أنا كذلك. كان المقص أحيانا لا يطاوعها، تأخذ وقتها لصقله كأنها كاتب يغلق قطع الخشب.

إنهـا ليسـت بمعنى الكلمـة «تقطيعه» لأنه فـي المنطق، تلك الكلمـة لها معنى، ففي الحقيقـة كانت عبارة عن أجزاء متنافرة كشريط سينمائي على يد مخرج يتم حذف لقطاته غير المرغوب فيها.

كانـت القطـع تتناثر عند رجليّ، رأيت الكم يأخذ شـكله كأنه يقطينة «قرعة سلاوية» تنحني وفق مزاجها. كانت أمي تعلم أنها تخطئ، ولكن لا يجب إعطاؤها أي نصائح، فهي تعرف ما تفعل. وقتما لا تجد ما يقطع، كانت تبقى جامدة بوقفتها كأنها ضائعة لتلـوم المقص في يدها. ثم تصعـد تنهيدة من أعماقها وتبدأ في لمّ قطع وبقايا الثوب. تحضر الشـاي لتهدئة مزاجها، لتبدأ من جديد في ترتيب القطع وتغييـر أماكنها وقص أطرافها لتعديل مقاسـها، ثـم تحصيها، ثم تعـاود عد الأجزاء. ثلاثـون قطعة أو ربما أربعون. يعلم الله ماذا ستصنع منها، على كل حال ستحاول.

آلة الخياطة، العجيبة «سنجر»، التي تدور بدواسة بالرجل والتي تعايشت مع الإنسانية لمدة من الزمن. إنها لاتزال أمامي أحافظ عليها، إنها ميراثي الوحيد. إنها لاتزال وسط الكتب التي كتبتها والتي اصفرت مع الزمن وتغبرت. إنها بجوار أحد المقالات التي تقول إن الثورة لم تعد عند «ماو»، لكنها مع Control Data(*)، كانت لديّ مهمة ثقة وكان عليّ الوفاء بها: أن أُدخل الخيط في سم الإبرة. أمي لم تستطع قط فعل ذلك. هل تعلمون ما هو قلة البصر؟ ومن تلك المرأة التي تعترف أنها ضعيفة البصر؟

أي خيط ماما؟ أوه لا يهم، أي خيط صالح لذلك. لا يهمها اختلاف الخيوط حتى لو كان سلكا شائكا. خيط الكتان، خيط الحرير، القطن الأسود، البني أو الوردي، كل خيط بقي على البكرة. كانت أمي تشتهي اللون الوردي، لون الحلوى، لسبب بسيط ومنطقي لأنها تحب الحلويات. من أجل هذا فلا مشكلة مع الألوان. إنه مجرد خيط، فلا مشكلة.

تشعل الشمعة تضعها فوق القارورة الزجاجية، تضع رجليها على دواسة آلة الخياطة. واقفة، منحنية أمام آلتها، تدعو:

«ربنا الذي في السماوات، إنك في الأرض كذلك، أعِن خلقك الضعيف الذي صنع الوسائل التي جعلته أصم، أعمى وأبكم. كن في عوني يا ربي على هذا العمل الشاق، في هذه الدنيا. أحمدك ربي كثيرا على نعمتك، يا الله!».

وتبدأ الآلة في العمل.

(*) يقصد الاختراعات الحديثة.

لا أفـرق بـين الاثنـين، مـن يعمل هـل أمـي أم الآلـة؟ كأنهما شـيء واحـد. روح واحـدة، جسـم واحـد والحـركات المتناسـقة نفسـها، كفرسـان القوقاز كما شاهدتهم في إقليم «دون» في جهة فيوكينسـكايا. لا أدري إذا مـا كان للآلـة قلـب يجـري فيـه الدم، ولحظات تجري فيه دفعة من الأدرنالين لتزيده قوة.

لكن، أمي كانت أمام آلة الخياطة، كأنها تطاوع حيوان الفقمة بحركاتها المجنونة كأنها ترقص «الجيرك»، لم تكن الخياطة قط مسـتقيمة، وكانت الإبرة تأخذ أي اتجاه. أحيانا تشـرك طرف كم مع كمها المتدلي، وأحيانا أخرى حتى مع شـعرها الطويل. والآن يجب أن أقول الحقيقة، وأنتم تعرفون أني صادق، إن هذا المشهد وقـع مرة واحدة، في أحد مسـاءات أكتوبر من العام 1939، وكان عمري ست سنوات.

في ذلك المساء تأمل أبي مليا في ملامح عينيها.

- أعجبتنـي تسـريحة شـعرك الجديـدة، الآن ظهـر جمـال جبهتـك وأصبحت أجمل. ردد تلك العبارات وهو ينثر سـيجارته من الرماد.

أتكلـم، لأقـول الحقيقة: إنـه حقها. حق طبيعـي في الحياة. مـاذا أرى؟ رأيت عيني أمي تتفتحان كأنهما أضواء منارة في ليل من ليالي القطب الشـمالي. كنت شـاهدا على ميلاد شـمس في وحدتها العميقة اليومية. لم يدم ذلك إلا في فترة الميلاد، لكني رأيت عاصفة الفرح تغير ملامح وجهها.

ها هو أبي: أصبح لينا معنا كلنا في هذا المسـاء. وفي الصباح كانت أمي تطير كالعصفور من غرفة إلى أخرى. أعدت العوامات

وألقمتني منها وأكَلَت ما يقرب العشر. غَسَلَت كل الدار من ثلاثة طوابق، رَتَّبَت الزرابي والسجادات. كل ذلك من أجل تلك الآلة- آلة الخياطة- التي لم تعرف كيفية استعمالها البارحة! من أجل الإبرة التي كادت تخيط مع الثوب شعرها!

كان ذلك بالضبط في ذلك المساء، المرة الأولى التي أرى فيها أبي بتلك اللطافة، ومع من؟ مع زوجته. المسامير كالمجتمعات، كالأحاسيس كلها قابلة للصدأ مع مرور الأيام. لكن لن تكون كأمي. كانت كشجرة، في فناء السجن، لكن مع طلوع الربيع تستطيع أن تبرعم وتزهر أجمل الأزهار. حينما ستسقط عليها سدادات الاستعمار، ماذا ستفعل؟ هل تتجه إليّ لتشتكي؟ من يمكنه الإنصات إليها، وبالرغم من صغر سني؟ هل تبكي بين وسادتين حتى لا يسمعها أحد؟ لا. كانت تفك شعرها، خصلة خصلة، وتقريبا شعرة شعرة، وتجر الخيط الذي جعلها تبدو أحسن بهاء في ليلة واحدة. ذلك الخيط، ولن تكسره أبدا. لمته حول زرار من أزرار ثوبها، وكانت تفعل ذلك بكل تأنٍ.

3

فـي أحد أيام يوليو، كانت الحـرارة مرتفعة، بحيث إذا وضعت بيضـة طرية تحت أشـعة الشـمس، سـتصبح خلال عشـر دقائق قابلـة لـلأكل، كأنها طبخـت على النار، فجأة سـمعت ضجة غير معتادة على مدخل الدار، لا يسـمع إلا الهرج وهمسـات الجيران الذين تجمعوا في الدرب.

كان على نجيب أن يشـرع الباب على مصراعيه، لكي يسـمح لأشـخاص بثيـاب قصيرة، يتصببـون بالعرق، حاملـين صندوقا على أكتافهم، ملفوفا بأطراف من الحديد كأنه نعش.

خوفا على بيتها كانت أمي في المطبخ متسلحة بالمكنسة.

- مـاذا هنـاك؟ لا تتركهـم يدخلوا، إنهم لصـوص، ماذا يعني هذا؟ تصرخ أمي مذعورة.

- إنه الراديو، يصيح نجيب.

- ادفع، لماذا لا تدفع؟ يقول أحد الرجال.

- أي راديو؟ ماذا يعني هذا؟ تصيح أمي.

- انحنِ، ألا ترى أننا لم نعد نتحمل الثقل؟ يصرخ في وجهي أحد الرجلين.

أرد عليه : نعم سيدي.

- إذن، افعل ما قلت لك. يرد عليه بصوت عال.

كان مشعرا كالكلب، وكانت في عينيه ملامح قتال. التصقت على الحائط، بينما الرجل الآخر ضربني بأحد المرفقين.

- اتركنا نمر أيها «الجبان»! هذه المصيبة الثقيلة نحملها من المحطة إلى هنا في هذا الحر. أربعون درجة في الظل هل فهمت؟ إذن ابتعد.

هذا الأخير لم أر إلا حاجبيه الكثيفين كفرشاة الأسنان، وعينيه كأنهما شرارة حريق.

- اخرج لتلعب، اخرج يا صغيري، يرد نجيب!

أعرف جيدا الدرج الذي يسلكونه، إنه من الخرسانة، ضيق ومظلم ويصدر طنينا، درجاته عريضة وعالية. في الدرج يوجد دهليز بدولاب ومخبأ. هناك كنا نلعب أنا ونجيب؛ ثم يشكل الدرج زاوية ضيقة غير متوقعة، تنزل بأربع درجات ثم تصعد بهدوء إلى الطابق الأول. كنت أعرف الرجل الذي رسم تصميم المنزل في لوحة خشبية بقطعة من الفحم. إنه كان فنانا، يستطيع أن يستظهر عليك رباعية عمر الخيام بأعين مغمضة. كان يتكهن بجميع التفاصيل، حتى فيما يتعلق بتلك الرموز الملائكية على السقف التي تسهر على أهل المكان، لكن بالنسبة إلى الدرج يبدو أنه نسيه.

كان علينا إضافة الدرج، وعرفت من أشرف على بنائه. من دون تصميم مستعملا حاسة الفلاح الذي ينزل في شكل عمودي من الجبل.

كان نجيب يحذر الحمالين اللذين يتصببان بالعرق.. ليس من هنا، ألم أقل لكما!

مـع ذلك سـمعت صوتـا غريبا لاصطـدام، والذي لم أسـتطع وصفـه. مـن المطبخ حيث أختبئ سـمعت نوعا مـن الانفجار كأنه أمواج ترتطم على الصخور، يرد عليها صوت الصدى، وتصرخ أمي:

- ما هذا، ماذا يكون هذا؟

لا شيء أمي، إنه الجبس الذي يتطاير من الجدران.

ثم وصل مسامعنا صوت يشبه زمجرة دب في جحره.

- يـا ربي! يا ربي! كيـف يصير حالنا؟ إنها نهاية العالم، تصرخ أمي كأنها طفلة صغيرة.

- لا يا أمي إنهم عمالقة ومعهم نجيب الذي يتعلم منهم كيف يصبـح عملاقـا. إنهم بالكاد يصلون إلى وسـط الـدرج وبعد قليل سـيدورون شـمالا، إنه المكان الصعب. لا ادري كيف سيسـتطيعون تخطيه.

- مـاذا يفعلون هنا، وما ذلك الصنـدوق الضخم؟ هل هو جثة من الرصاص؟ أو حجر؟ أو... ماذا؟

- لا أمي، إنه الراديو!

- الراديو؟ ماذا يعني ذلك؟ الراديو؟

كنـا نسـمع همهمة غيـر معتـادة، وأصواتـا متقطعـة بطلبات استغاثة من فوق رؤوسنا، كان سقف الخرسانة يرج كمطرقة آلية. في تلك الأثناء تتكلم أمي المرتعشـة من الخوف كأنها رجل وحيد في الصحراء:

- ادعُ الله يا ابني، اقرأ سورة الزلزلة.

كنا ندعو عندما سمعنا صوتا ينادي من السطح، كأنه استجابة لدعائنا.

- لقد نجحنا يا أطفال.. ها هو الوغد في مكانه.

ويرد آخر مزهوا بنصره: أعطني المطرقة والملقاط.

مدة من الزمن وهم يطرقون ويهدمون ويكسرون ويغنون:

أبي كان راعي القطيع

يزمر وراء الخيول

بمزمار من القصب

لتكون جميلة

تلك الخيول!

وكانوا يتابعون الغناء، ليس بالكلمات لكن بقهقهات طويلة من طرف أخي نجيب.

عند نزولهم من فوق كان الجميع مبتسما مسرورا، ولزوما كما تجري العادة عندنا، يجب إكرام الضيف. طلب أحدهم شيئا ما يمضغ.

- هل تريد «كالة» (نوع من التبغ يمضغ).

- لا، أريد شيئا أطفئ به الجوع، ولا تنس الماء، يرد الرجل المشعر.

أمي التي سمعت الحديث كلفتني بجلب القدر ودلو الماء. كنا هنا جميعا نتفرج، كنا نراهما ينهمان في أكل يخنة الحمص. إلى أن مسحا القدر، أما دلو الماء فلم يتمكنا من إفراغه كله على الرغم من أنهما كانا اثنين وكانا عطشانين.

ذهب الرجلان وكذلك الجيران، وبعدها خيم السكون على الحي. أغلق نجيب الباب وهو يطقطق أصابعه ويردد:

- تعالوا يا أحبائي لتروا العجب العجاب.

صعدنا ورأينا. على الأرض في الصالة كانت هناك ألواح خشبية، اثنان أو ثلاثة بكاملها، والألواح الأخرى مكسورة. أطراف من الأسلاك الحديدية، مسامير ملتوية. وفي وسط كل ذلك، شيء أسود اللون، ثقيل ومستطيل بجوار الصندوق الخشبي والخزانة. في شكل إطار بزرين ولوحة من المعدن وعليها نقشت كلمة: BLAUPUNKT.

أمي تنظر بتأمل في وجه نجيب الذي يرفع يديه نحو السماء. ثم تتأمل في المنقول مليا وتلمسه وتدور حوله ويداها وراء ظهرها. وما دام المنقول لم يرد، توقفت وقالت لي:

- ما هذا الشيء؟

- بلو بين كتوه، أجبتها.

- ماذا؟

- بلو بين كتوه.

ثم انفجرت غاضبة.

- أريد في هذه الدار من يشرح لي ماذا يكون هذا الشيء.

- ما قاله ليس بصحيح، أنا بدوري أعرف القراءة. يرد نجيب.

- بلا ابين كتوه.

بدوري انتابني الشعور بالغضب، وأكرر:

- بلو بين كتوه.

- لا يا سيدي: بلا اب. ي. ن كتوه، هكذا يا صغيري.

- يا ربي! ماذا يحكي هؤلاء الوحوش الذين ولدتهم! هل يمكنكم أن تفسروا لي ماذا يكون هذا؟

- إنه الراديو، يرد نجيب.

- مـاذا يكـون هذا الراديو الذي تتكلمون عنـه منذ ثلاثة أيام؟ راديو.. بلو.. بلا.. ابين.. راديو.. كتو! تصرخ أمي.

نتبادل النظرات كأخوين ونردد بصوت واحد:

- إنه صندوق يتكلم.

- مـن يتكلـم؟ صندوق، يتكلـم؟ آه، هكذا! تظنوننـي امرأة من العصـور الوسـطى أو سـاذجة؟ تريـدون أن تتهكمـوا علـى أمكـم، انتظروا سأنزع حزامي.

- إنه من الحرير ولن يؤلمنا، من الأحسن خذي واحدة من تلك الألواح الخشبية واضربي إن لم تفهمي، أؤكد لك أمي أنه صندوق يتكلم، يرد نجيب ضاحكا.

- لكنه لا يتكلم الآن!

سوف يتكلم أمي، وسيعطينا كل أخبار العالم، وسيغني، ويقول: «عنـد الإشـارة سـتكون بالضبط العاشـرة وأربعا وعشـرين دقيقة وثلاثين ثانية»، سوف يضحك، يبكي ويحكي الكثير من القصص.

- سيعمل كل هذا أنت متأكد؟

- نعم سيدتي.

- لكن كيف؟

مـرة أخـرى، ننظر إلـى بعضنا البعـض. تفاهمنـا. كأنني أرى إصبعـا علـى عين نجيب يريد مني أن أحتاط وألا أتكلم: «اخرس، لا تكلمها عن الكهرباء وشرارتها». أجبت بكل سرعة:

- إنه السحر.

- آه هذا، طيب.

- تريد أن تقول إن ساحرا سيأتي ويعطي الحياة للصندوق.

أخذها نجيب بين ذراعيه وقبل يديها وجبينها ورأسها.

- إنه ساحر لن تراه عيناك أؤكد لك ذلك.

- أوه، أنا فرحانة... جد فرحانة.

ساعدناها في ترتيب الصالون، كنسنا وغسلنا الدرج. خرج نجيب مسرعا حاملا معطفه يردد:

- بوه! إنه معطف قديم، والطقس أصبح حارا. سأبادله بشيء ما.

عندما رجع كان يحمل كيسا من الجبس على ظهره. وبواسطة مغرفة من خشب شجرة الزيتون خلطنا الجبس وأصلحنا الثقوب في الحائط.

في المساء، تناولنا اللحم باردا برفقة الوالد، تكلم عن فلاسفة اليونان وعن مضاربات بورصة «وول ستريت»، ولم يتكلم في موضوع الراديو، ذهب إلى غرفة النوم وهو يدخن غليونه.

بعد أيام دخل إلى الدار عدة رجال، ربما ستة. البعض منهم يحفر والبعض يدق المسامير، ومنهم من يثبتها. وضعوا عدادا وجروا خيوطا كهربائية ثم المقابس والثريات. كانت أمي تشعر بالحرقة كأنها غريبة في بيتها، تراقب خلسة الضجيج وخطوات الرجال. كانت حبيسة في مطبخها تعض على شفتيها من الغيظ، وتعد الأكل والشاي لنا وللعمال من أجل تشغيل الساحر في الدار، وكانت تسألنا:

- هل وصل الساحر؟

قلنا، أنا ونجيب:

- قريبا.

لـم تكـن حائـرة ومضطربـة.. لا.. إنهـا فـي حالـة أخـرى من مميزاتها الفريدة: الصبر والسكينة. صبورة مؤمنة، يوما بعد يوم تحول صبرها بتأثير الضغط إلى عصبية.

فـي تلـك الجمعـة، أتذكـر جيـدا كل تفاصيل الماضـي الحاد. السـاعة تدق الخامسـة بعد الزوال. نزعنا النعال، أنا وأخي نجيب وضعنا الحقائب وصرخنا:

- أخيرا ها هو!

مـع مـرور الزمن، بعد مرور عدة سـنوات عندما أسسـت بدوري عائلـة في بلـد آخر، والـذي تعلمـت أن أحبه. كانت إحـدى بناتي «دومينيـك» ذات التسـع سـنوات، شـقراء إلـى درجة أنـك لن ترى شـعرها تحـت أشـعة الشـمس، تشـبه جدتهـا - أمـي - بعينيهـا الكبيرتين الزرقاوين كزهرة في الحقول. في المسـاء على سـريرها، كلمـا حكيت لها إحدى حكايات الغـول والجنيات أرى على وجهها تقاسيم معزوفة «البحر» لديبيسي، المد والجزر، الهدوء والعاصفة. تدمع عيناها لحظة، وفي لحظة يأتي الربيع في ابتسامتها.

هـذه العاطفـة الصافيـة، بلونهـا ورائحتهـا المعطـرة بالصدق كانـت حاضـرة هنا، علـى وجه أمي عندما وضـع نجيب بين يديها «الإجاصة» الكهربائية المتدلية من فوق سريرها وقال لها:

- شغلي. اضغطي على الزر. هيا!

في تلك اللحظة كانت مترددة مبهورة تحملق في عيونهم أمام المجهول. كانت خائفة من أن يظهر الجني وألا تسـتطيع التحكم فيه. ومع ذلك رأيت أسنانها: كانت تبتسم. كانت بالتأكيد ابتسامة دهشة: «بسم الله الرحمن الرحيم، رب العالمين!»، ثم ضغطت على

الإجاصة - وسطع الضوء في الغرفة وكذلك لاح النور على وجهها.

كانت هناك هادئة، تتأمل في ذلك الشيء المصنوع من البلاستيك بين يديها، الذي باستطاعته إنارة العالم. كانت فرحتها عارمة، كحفيف البحر عندما يسطع على سطحه أول خيط من أشعة الشفق، من موجة إلى موجة، ومن أفق إلى أفق. ويمكن أن أقسم كأنه صوت نورس يصدح:

ها هو!... الساحر أتى!

- أطفئي الآن، قال نجيب ضاحكا.

- ماذا؟

- اضغطي مرة أخرى على الزر.

وفي رمشة عين لبت النداء، ولحظتها ساد الظلام.. الحزن. كأن كل أعصاب وجهها من تحت جلدها انتزعت في لحظة.

- أوه إنه ذهب، إنه ذهب. ترد بصوت حزين.

اضغطي على الزر وسيرجع. هيا لا تخافي.

كانت الساعة تشير إلى نهاية فترة ما بعد الظهيرة، وصيحات الشحاذين المسائية تصل إلى السماء كأنها نداء إلى الصلاة. وكانت لاتزال في مكانها واقفة منبهرة، تضغط من دون توقف على الإجاصة، وتردد كأسطوانة مشروخة:

- شغّل - أطفئ!.. شغّل - أطفئ!.. شغّل - أطفئ!

- والآن هيا نذهب لنرى الراديو، هاه، قال نجيب وهو يطقطق أصابعه.

- انتظر.

تقفز من غرفة إلى أخرى، تشعل المصابيح والثريات. تطفئها

وتشعلها وتصفق وترقص.

- تعالي لتري الراديو.

ذهبت قبل ذلك لتلبس قميصها الجديد المطرز بخيوط الذهب، وتعطرت بعطر الياسمين ودخلت إلى الصالون، كأنها تراه لأول مرة. جلست على قدميها وإبطيها على الركبتين وذقنها بين يديها، حائرة وفي منتهى الترقب والدهشة.

أدار نجيب أزرار الراديو، ضبط الصوت، آنذاك صدر صوت:

- القمح الصلب 180، القمح اللين 213، الحلبة 31، الدخان 20.

بعد ذلك، موسيقى. ولحظتها سألتُ أمي.

- ما رأيك، إذن ؟

لم تجب، لم تسمعني، كانت كأنها في حلم.

- والآن، مستمعي الأعزاء، إليكم النشرة الجوية. ضغط مرتفع قادم من جزر الكناري يتجه نحو الجنوب من بلادنا.. الحرارة المسجلة في الظل على الساعة الرابعة زوالا: فاس 28، الدار البيضاء 29، مراكش 34.

أشار إليّ نجيب بغمزة وخرجنا بهدوء. في صمت قمنا بالواجبات المدرسية ثم لعبنا الورق وتعاركنا في آخر المطاف. عندما يكون أبي مسافرا كنا نتعشى عشاء عاديا في المطبخ: خبز الشعير والعسل لأخي والبيض المطبوخ لي. مرتان أو ثلاث، يصعد نجيب ومعه قطعة من فخذ الخروف. وعندما نزل يهز رأسه ليقول: «اصمت، إنها تسمع خطبة الجمعة.. إنها في المسرح.. في المهرجان...»

- هل أكَلَت؟

- لا، بل أنا أكلت، من العار أن نترك هذا اللحم الشهي يفسد، أليس كذلك؟

في منتصف الليل سمع صوت الراديو يقول:

مساء الخير سيداتي.. مساء الخير سادتي (وعم الصمت).

- تصبح على خير أيها الساحر، طابت ليلتك بأحلام سعيدة.

- من دون بق ولا براغيث، يرد نجيب ويسألها:

تريدين أن تتعشي، لايزال بعض اللحم عالقا على العظم، أم تفضلين أن أطبخ لك ست بيضات مع المخلل كما تحبين؟ أليس كذلك يا أمي الصغيرة؟

- أخفض صوتك أيها الغبي! سوف يستفيق. ألا تسمع، إنه يشخر؟

نعم صحيح إنه الراديو. ذهبت لإطفائه.

هكذا أصبح الساحر من العائلة يسليها من الصباح حتى المساء: يخطب، يغني، يصرخ، يضحك. كانت أمي تظن أنه كائن حي بلحم ودم وعظام، كأنه عالم محنك وعراف جال في كثير من بلدان المعمورة، يختبئ في ذلك الصندوق من رعب هذا العالم. كانت تسميه «اكتوه» لأنها لم تكن تقدر على نطق اسمه كاملا.

كانت تتحاور معه، تتوافق معه وتخالفه أحيانا.

- ماذا قلت سيدي، هل يمكنك أن تعيد ما قلت، لم أسمع جيدا، من فضلك، أوه، لا سيدي «اكتوه»، أؤكد لك أن اليوم لم تسقط الأمطار بتاتا.. أكيد لا يمكنك أن تكون موجودا في كل الأماكن، ربما أخطأت.. لم يُعلموك جيدا.

أصبح «اكتوه» بالنسبة إليها الإنسان الذي طالما انتظرته، كان بمنزلة الأب الذي لم تتعرف عليه قط، والزوج الذي يحكي أشعار الحب، والصديق الذي ينصحها ويكلمها عن العالم الخارجي الذي تجهله. عندما دقت طبول الحرب العالمية الثانية كانت هناك حاضرة بجانب الراديو. كانت مهتمة بكل تلك المآسي، تعد الطلقات بخربشات قلم الرصاص على لوحة التصبين. كنت في الثانوية أتلقى دروس الأخلاق والإنسانية، وكانت أمي هناك في الدار - القبر - تتعلم الحياة.

تردد أمي:

- ليس صحيحا سيدي «اكتوه»، لا يمكن أن تصدق كل ما يقوله السيد «هتلر»، لم يقدر على إغراق ألفين وثمانمائة وأربع وثمانين باخرة في شهر واحد. لا يمكن تصديق ذلك.

السيد «اكتوه» لم يكن يسمعها، لم يكن لديه الوقت ليسمعها. كان يخطب كمنادٍ مدفوع الأجر، ينبح ببلاغات الحرب، يعطي تفاصيل جل الانتصارات في المعارك؛ ثم تكلمه بلطف:

- استرح الآن، لقد تعبت كثيرا اليوم، ومن حسن حظك لم تُصَب برصاصة طائشة.

تطفئ الراديو، تحط بجانبه كوبا من الماء، نعم تعطي للسيد «اكتوه» الماء والطعام كذلك. في الصباح تجد الأواني فارغة وكانت تبدو في غاية السعادة. إنه نجيب. كان ينهض من نومه ليفرغ ذلك في جوفه وبذلك كبر حجمه وزادت قوته.. كان من غير اللائق قطع خيط الحلم، حلم أمنا الحبيبة، أليس كذلك؟

4

المِجْمـر الذي كانت تسـتعمله أمي كان شـيئا مرصعا بكلمات «صنـع في ألمانيا»، بعروتين تشـبهان صدفة سـان جـاك. كان أثر السـنين باديـا عليه، بدأ الصـدأ ينخر بعـض أطرافه. من خلال تلـك البقـع الصدئـة وبواسـطة المقـص الياباني فتحـت أثقابا للتهوية.

كانـت تلبـس صدريـة لم تحبهـا قـط، مزقتها قطعـا طولية بأسـنانها، ومرغتهـا في الطـين، وغلفت بها المِجمـر من الداخل والخـارج حتـى يصبح كأنـه مومياء، تنشـفها على ضـوء القمر في السـطح مدة عشـرة أيام، والشـمس الأفريقية الحارقة تكمل البقيـة، تقـوم بتقوية الطين زمنا طويـلا. كان نجيب من يحمل المجمـر الثقيل صعودا وهبوطا. بطرف سـكينه كان يكتب: صنـع بالدار البيضاء، المغرب - من طرف «مامي».

ألم أتكلم بعد عن أحمر الشفاه الذي كانت تصنعه أمي؟

أقـول إنهـا كانت تخلط زهور شـقائق النّعْمان بمـاء الورد: تحصـل على عجـين أحمر. كانت تغمـس أصبعها الصغير في الإنـاء الـذي يحتـوي علـى أحمر الشـفاه وترسـم زهـرة على المجمر.

ترمـي منديـلا قديمـا مشـبعا بزيت الزيتـون كفتيلة وسـط المجمـر، في شـكل قبة تضع الفحم قطعة قطعـة، وتترك مجالا للتهويـة. تقدح عود الثقاب وترمي به علـى الفتيلة. بعد لحظة يظهر لهيب برتقالي، ثم لا أرى شيئا بعد ذلك بسبب الدخان.

كانت أمي تكح حتى يتشقق صدرها بسبب كثرة الدخان، كانت تبقـى هناك مقرفصـة أمام تحفتها ؛ لا تتراجع أبـدا. كنت أراها كأنهـا وسـط ضباب شـهر نوفمبر علـى بحيرة «بويـور» الكندية. كانـت تنفـخ على النار بكل قواها، كنت أحاول مسـاعدتها وكانت تـرد: «دعني أفعل» عندمـا ينجلي الدخان تبـدو عيونها حمراء، وأكثر بريقا من الجمر، وتتساقط دموعها.

أريـد أن أقـول إنها أشـعلته ذلـك اليوم، ولـم ينطفئ لعدة سـنوات، كانـت كلما مرت بالقرب مـن المجمر ترمي قطعة من الفحـم أو أكثـر. مـع مر السـنوات أصبـح الطـين يتفتت مع حـرارة الجمر. على طول النهار كان «المقراج» يغني فوق النار، لـكل الاحتياجات: من أجل الطبخ، من أجل إشـعال سـجائر نجيب، أو من أجل إحراق بقايا السجائر حيث نسمع صفيرها وهي تحترق في لهيب جميل أزرق اللون في النهار وبنفسجي فـي الليل. أحيانا كانـت أمي تحرق دفاترنـا القديمة، وبعض الفواتير القديمة، وكل الأوراق التي تجدها تحت أسرّتنا. التي يرمـي بها أبي. على ركبتيها، اليد على اليد، كان ضوء الجمر ينيـر وجههـا، كانت هنـاك هادئة تتأمـل الكائنات والأشـياء، متعطشـة للحريـة والحقيقـة، لعالـم تحاول دومـا اختراقه، وهي تخبط عشوائيا في الظلمات. من سيروي عطشها ؟ وهي

مرمية على الأرض، من يساعدها في الوقوف على رجليها؟ ومن يساعد تلك اليائسة في البحث عن الطريق في هذا العالم.

كانت حياتها عبارة عن لغز. حياتها الداخلية التي تحاول أن تكيفها مع الحياة الاجتماعية المطلوبة. أم وزوجة، كل شيء يمكن أن تلمسه، تشمه، تراه، تسمعه، تذوقه وتحبه كانت تستوعبه بسهولة، تتعايش معه وفق شخصيتها- وفق ما يكون على مقاسها. غير ذلك كانت ترفضه، كل شيء من شأنه أن يغير العالم، ليس نظرتها إلى هذا العالم بل إحساسها به.

يوما ما، سوف أجعل الأشياء تتكلم عن نفسها.

كان إيقاع حياتها بطيئا، بطيئا جدا، كإيقاع الأرض. جنيني. كل تسرع في الحياة أو التاريخ، يجعلها تهرب في الحال. كل هذا لا يهمها بتاتا. ما هو أجنبي (تربية الأبناء، مواد عصرية، أحداث غير متوقعة)، كل ما يهم مباشرة عالمها، كل هذا أصبح لا يقلقها وكذلك الأحداث وكل الأشخاص.

هكذا بدت: هذا الحدث أو هذا المنتوج هل هو صالح فعلا لحياتها أو غير ضروري لقيمته اللحظية غير الدائمة؟ وهل يمكن أن يلقى مكانه بين مكونات اللغز من دون أن تطرح مسألة القيم؟ قلت إنه سيأتي اليوم الذي سوف أجعل فيه الأشياء تتكلم عن نفسها. ابتكارات الإنسان، في محارية ذاته.

آلة الطبخ، تلك الآلات - التي أصبحت الآن - من المعدن بألواح يتعين حكها، وصقلها، وتشحيمها. لماذا اشتراها أبي؟ كانت آنذاك رمزا للحضارة. رمز الحداثة بالأشياء لا بالأفكار.

إنهـا جريمة أن أصدر حكما فيها، أفهم ذلك. ولكني كنت حكمت مسبقا، كانت الهوة كبيرة جدا بين أبي وأمي.

«هـا هو عنصر آخر من عناصر لغـزك، إنه هدية لك. أدخليه بقوة، لكن احذري من كسر اللغز بالكامل، وكوني سعيدة».

مـاذا تفعل أمي مـع آلة الطبخ هذه التي تزن مائتين وسـبعة وعشرين كيلوغراما؟

تغسـلها بالماء، تمسحها، تلمعها بشـحم الثور، وإذا لم أمنعها كانت ستلونها بالجير الأبيض، لكونها لا تحب أبدا اللون الرمادي، كما لا تحب الإنسـان الرمـادي وكذلك العواطف الرمادية. كانت لعـدة أيـام بلياليها تتأمـل فيها من دون أن تكلمهـا كأنها تـراقب لصـا؛ وفي لحظة حشـتها بالفحم وأشـعلت النـار. كانت ليلتها مناسبة رأس السنة الميلادية (نويل).

كنت أول مرة أسـمع أحدا يتكلم عن عيد رأس السنة الميلادية عندما كان عمري 12 سنة.

- بون جور فرانسوا ! لم أنسك قط. كان فرانسوا أحد زملائـي الذي سألني في ذلك اليوم:

- مـاذا سيجلب لك الأب نويل؟

- أذكـرك بـأن أبـي لا يسـمى نويـل (بالمناسـبة أذكركـم بأني تعلمت الفرنسـية في «المتعلـم» (Le Littré)، كتابي الموجود في خزانتي).

- Quel branque !

- مـاذا تعني كلمة «branque»؟

- branque تعني يا بليد.

- آه حسن، فهمت (كانت تلك المصطلحات غير موجودة في كتاب Le Littré).

- لا يهم، لم تقل ماذا سيجلب لك.

- من؟

- بابا نويل.

- من هو بابا نويل؟

بدأ يشرح لي. أنا الذي رأيت النور في مجتمع القرآن، كنت أعرف النبي عيسى- عليه السلام يوم وُلد ويوم يموت ويوم يبعث حيا. هكذا علمنا القرآن. والبقية شرحها لي فرانسوا. حاول أن يفسر لي عيد الأطفال، شجرة عيد الميلاد، شجرة الصنوبر الجميلة، ملكة الغابة، الأحذية الجديدة في المدخنة، الآلاف من اللعب، الديك الرومي بالكستناء.

أبي لم يتجاهلني قط، مادمت أحصل على معدلات جيدة كان يعطيني نقودا. دائما كمية نقود في جيبي، مقدار ما يحلم به أحد سكان بنغلاديش، أو ما أحلم به أنا حاليا.

كنت أنتعل أحذية كتلك التي يلبسها لاعبو التنس. اشتريت زوج أحذية من الجلد الحقيقي من شأنها أن تثير انتباه بابا نويل. طفت الشوارع والأزقة أبحث عن شجرة الصنوبر.

- أعطني شجرة الصنوبر!

- ماذا تريد؟ شجرة الصنوبر!

في المساء لم أستطع الحصول على شجرة الصنوبر، ولكن سعف النخيل وحزمة من الميموزا قاما بالدور. استقبلتني أمي بعينيها المتلألئتين.

- إنها لي أليس كذلك؟ أوه! كم أحبك! لم أر في حياتي قط زهرة.

سمرت السعف على باب المطبخ، ووضعت زهور الميموزا على شعرها. صَعَدتُ إلى غرفتي، من درجة تلو الأخرى كنت أحمل بين ذراعي على صدري كرة.

في تلك الليلة، سهرت مع الكلمات. نعم، بت أقلب صفحات القاموس، أقرأ القصص؛ كتبت شعرا تلك الليلة، أشعارا لم يقبل نشرها أي ناشر، ومع ذلك كانت تلك الأبيات تحلق عبر جبال الألب والهمالايا وبابا نويل بعربته المجرورة بحيوان الرنة.

عندما ساد الصمت في البيت وتأكدت أن آخر الأبواب أوصد، عددت حتى المائة، ثم الألف وهبطت، كانت نعالي الجديدة في يديّ وأنا أخاطب نفسي: يا صغيري بابا نويل، عندما تهبط من السماء.

كانت لاتزال هناك، في المطبخ تراقبني في الظلام. لم تترك لي الفرصة لأشرح لها، طردتني بما لقيت أمامها من مناديل.

- ماذا تعمل هنا؟ ألا تريد أن تنام؟

ذهبت إلى غرفتي لأنام، بقيت عيناي مفتوحتين أحاول أن أجد جوابا لأسئلة كثيرة: كم يكون عمر بابا نويل؟ هل له أطفال؟ لماذا يهتم بالأطفال؟ هل يعرف اللهجة المغربية؟ إذا لم يجد المدخنة هل يمكن أن يهبط من أنبوب المطبخ؟ وما اسمه؟ فرانسيس؟ أنطوان؟ إدريس؟...

كان جارنا خبازا، له ديك لم يره أحد من قبل، كان له صوت مميز، كان لا يوقظ الخباز وحده، بالضبط في الثالثة صباحا، في الشتاء والصيف. كانت تتبعه في الصياح كل ديوك المدينة

وكل الدجاج، والإوز وربّات البيوت وكذلك الخيول والكلاب والبشر. وبعد كل ذلك الضجيج ينام الديك، ويتمنى البعض لو تمكنوا منه ليذبحوه، منهم نجيب الذي كان يدخن علبة سجائر كاملة في ليلة واحدة.

مؤذن الحي، رجل معروف بورعه وبعصبيته، يجوب الدروب والأزقة مرددا عتابه على هذا العصر وعلى أهله الذين يبتعدون عن الدين. كان مع كل فجر يصعد إلى المئذنة ويؤذن في كل الاتجاهات لكي يسمعه الجميع. يكون الجميع قد استيقظوا مع صياح الديك من أجل صباح يوم جديد. الرجال النساء والأطفال كانوا لا يتجاوبون مع الأذان، إلا الأتقياء ومن هو أصم. ما دور الجامع؟ يا له من حيّ، يردد المؤذن دائما: عندما تبلغ الساعة ستأكلون الحجر، يا له من حي!

مع كل طفولتي عشت مع صياح الديك. كنت أسد أذنيّ، لكن صوته كان يخترق كل الحواجز، وأجد نفسي أسمع كل الأصوات: صهيل الخيل، وثغاء المعز، ونباح الكلاب وكذلك شخير بني آدم.

في تلك الليلة لم أسمع صياح الديك. كانت لديّ ساعة سويسرية شديدة الدقة. عند الساعة الثالثة إلا عشر دقائق نزلت إلى المطبخ ووضعت نعلي في فرن المطبخ.

خمنت كل شيء إلا بعض التفاصيل القليلة الأهمية، في تلك الليلة قررت أمي: أن تشعل لأول مرة آلة الطبخ.

وجدناها وسط دخان كثيف تحمل مكنسة وممسحة وتصرخ:

– ما هذا الاختراع الشيطاني؟ ارموه بعيدا مني، لا أريده... أؤكد لكم أني لا أريده!

لـم أصـرخ: حذائي...حذائـي ولكنـي كنـت أفكر فيـه، فتحت الفـرن لأصـب الماء، وهكـذا حصلت علـى حذاء مفحـم من بابا نويل بدلا من لعبة أتسـلى بهـا. كان نجيب من ورائي يقهقه من أعماقه، وكذلك أمي تضحك بالرغم من الذهول والرعب وتقول:

- ماذا هناك.. لماذا تضحكون؟

كمـا قلت إنها لم تشـعلها إلا مـرة واحدة، لكنها لـم تفارقها، كانت تقشرها، تمسحها، تصبغها بلون أصفر كالليمون، وبالأحمر كالـدم، ترسـم أزهارا وخطوطـا ونجمات. كانت تلـم فيها كنوزها التـي كانت عبارة عـن قوارير ماء الزهر، وأخرى لأحمر الشـفاه، وصدفـات كنـت أحضرتها من الشـاطئ، وعروسـة مـن القماش، ومرآة من المعدن المصقول، وحدوة حصان ضد عين الحساد.

الفطـرة غلبـت العلـم، التقليدي لايـزال ينافـس العصري. المجمـر القـديم كان لايـزال هنـاك - كأنـه يبتسـم؛ ابتسـامة الفيلسوف المتواضع. كان لايزال يقوم بمهامه كالمعتاد، لا يضرب عن العمل أبدا، ليست له مطالب لا اجتماعية ولا سياسية.

5

كانـت المكواة من الحديد المرصـع بالكروم اللامع كأنه وميض الفرح. تعمل بالكهرباء. كانت أمي معتادة على المكواة التقليدية، تنسـى دوما وتضعها فوق المجمر. إذا ما ذاب أحد محتوياتها لن تتكلـم أو تصـرخ التكنولوجيـا لأنه لا روح فيهـا؟ لا أدري. كل ما أعرفه أن المكواة لن تتكلم من الألم أبدا إذا ماتت. في ذلك اليوم بدأت أفهم شـيئا من تلك المصطلحات: الزان واليوجا، التي كان يتكلم عنها أبي.

علـى الرغـم مـن كل ذلـك كانـت تكـوي أكواما مـن الملابس. يعيش الفن. في صمت، كانت تحرك المكواه فتنزلق وتنـزلق على البياضـات والمناشـف والمناديـل بهـدوء وحمـاس. عندمـا تنتهي تعلقها بواسـطة خيط الكهرباء. تتأمل مليا في إنجازها، تحرك رأسها وتقول:

- هل رأيت يا ابني، هؤلاء الأوروبيين شـياطين، لقد فكروا في الثقبين والمسـمارين والخيط لنعلقها بعد الاستعمال. لكنهم لا يعرفـون كيف هـي البيوت عندنا، لو كانـوا يعرفون ذلك لصنعوا الخيط أقصر. ومن أجل ذلك قامت بعقد وسـط الخيط. لتعلق فـي موصل الكهرباء، كانـت المكواة تتدلى على مقربة من الأرض

ببعض السنتيمترات. وكان نجيب يضحك:

- هاها..هوهو..همممم ! حسن جدا، حسن جدا!

أُلقي إليه موزة من فوق رأسه، فيقول نجيب: ماذا؟ ماذا؟ آه نعم، لا تهتم، لقد خبأتها جيدا.

كان يشير إلى مقص أمه الذي خبأه لكي لا تقطع به خيط المكواة لتفادي الكارثة. لو بقي بالقرب منها لن تتردد في قطع الخيط الكهربائي. في تلك الفترة لم تكن التقنية قد اخترعت بعد القاطع الآلي ولا أسلاك الرصاص السريعة الذوبان في حالة التماس الكهربائي،فقد كانت من النحاس الأحمر. في مقرر الفيزياء، كانت توجد فقرة مخصصة للنجدة من الصعقة الكهربائية. «اتصل بأقرب مركز للمطافئ، قم بمساعدة الضحية في التنفس الاصطناعي». كان ذلك بجانب رسم لضحية صعقة كهربائية، ممددا على قارعة الطريق بين رِجلَي المسعف، على مقربة من المحول الكهربائي.

أشرح لأمي التيار الكهربائي؟ وأي لغة ستسعفني لذلك؟ حاولت أن أفسر لها نظرية «اوم» و«فرداي» بطريقتي، لكنها ردت بتهكم:

- الآن بدأت تتلعثم، تقرأ كثيرا يا ولدي، كان الله في عون دماغك، أصبحت المعلومات مشوشة في رأسك.

حاولت أن أشرح لها بطريقة أخرى أكثر تجسيدا، حاولت تفسير النظريات عن طريق نسج قصة الجنّيات واللصوص وقلت لها:

- في زمن ما كان هناك جني خفي.

- يشبه السيد «اكتوه»! ردت والدهشة بادية على عينيها.

- نعم كالسيد «بلو بين اكتوه». إذن كان ذلك الجني يحارب الشيطان مثلما يحارب الضوءُ الظلامَ.

- هل انتصر الجني؟

- تمهلي. لقد أطفأ الشيطان الشمس والقمر.

- وكذلك النجوم؟

- نعم النجوم كذلك. وصل إلى القلوب، والأفراح، وأطفأ كل الأنوار، كان كل شيء مظلما وحزينا.

- اصمت، إنك تخيفني، لا أحب سماع المزيد من قصتك.

- لكن الجني اسمه «اوم»، وضع في جميع البيوت والمدن خيوطا كهربائية: واحد سالب والآخر موجب.

- ماذا تحكي يا ولد؟

- أريد أن أقول: خيط للخير والآخر للشر، وعندما يلتقيان.

- غير ممكن. الجني لا يمكن أن يفعل إلا الخير.

ضممتها إلى صدري ولخصت:

- أحبك أمي، أنت على حق.

بعد عشر سنوات أصبحت مهندسا، لسبب بسيط: من أجل أن أعرف الفرق بين البشر والأشياء بخصائصها الفيزيائية؛ وفهمت شيئا واحدا: هذا الفرق، ألا يكمن في المعرفة المؤلمة لما يحصل لكياننا، وفي عجزنا أمامه- مرورا بكل أشكال الحضارة؟

في العام 1940 عندما أدخلوا الهاتف إلى الدار حاولت أن أكلمها عن «جراهام بيل» وعن الخلايا الهيرتزية، كان لها منطقها الخاص بها، يذوب كما تذوب الضحكة مع الغم.

- كيف؟ أنا أكبر منك. وأنا التي ولدتك وليس العكس على ما أظن. الخيط هو الخيط، والشجرة هي الشجرة لا فرق بينهما. ربما تريد أن تقول إن «اكتوه» بدوره يسمى المكواة وهذا الخيط الآخر السيد بيل؟ اذهب.

- وبهذا الحساب، أيكون في البيت ثلاثة عفاريت؟ وعدة أنواع من البشر على الأرض؟ أهذا ما تعلمته في المدرسة؟

كنت مسرورا بأن أعلمها كيفية الاستعمال بعد ما قالت:

- هيا نجرب.

أخذت السماعة ووضعتها على أذنها، أدارت قرص التليفون بكل قواها. سمعت همسا ثم سمعت صوتا كما يسمع عندما نقلي السردين. ثم جاء صوت كطنين الحديد الصلب أصاب أمي بالذعر:

- ألو، هنا المركز. ما الرقم الذي تطلبونه؟

- سلام الله عليك يا ولدي، هل الصوت من المركز؟

- نعم إنه المركز.

- هل تعني البريد؟

- نعم، إنه المركز. أنا في الاستماع.

- أنا أريد البريد.

- إنه الشيء نفسه.

- آه!

- قولي الرقم المطلوب.

- فاس.

- لا تقطعي.

لم تقطع، وطمأنتني بابتسامة عريضة.

- فـاس بعيدة. مسـافة عشـرة أيـام على ظهر الحصـان. لكن الجني سيركض كالريح، سوف ترى. إن المسافات لا تخيفه.. بعد ثلاث دقائق سيرجع.. ألم أقل لك؟ ألو! هل أنا في فاس؟

- غرفة تليفون فاس، أنا في الاستماع.

- ألو مريم؟ هل تغير صوتك؟

- من تريدين؟ أنا في الاستماع.

- أنا كذلك.

- كيف؟

أنا في الاستماع كذلك. هل أنت مريم؟

- هل طلبتِ فاس؟

- نعم.

- أعطيني الرقم.

- اسمعي يا بنتي وحاولي أن تفهميني:

أريد أن أتكلم مع ابنة عمي. لم أرها مدة خمس عشرة سنة.

- أعطيني الرقم.

- لا أعرف.

- يلزمني رقم الهاتف لربط الخط مع ابنة عمك.

- اسمعي يا بنتي، افتحي جيدا أذنيك وسأدعو لك. ابنة عمي تسـمى مريم، لون عينيها أخضر كخضرة العشـب، ولون بشرتها أبيض كالحليب.

- ألو! ألو!.. اسمعيني.

- اسمعيني أنت أولا. هل تعرفين ضريح مولاي إدريس الأول؟

بالقرب من جامعة القرويين؟ إذن اهبطي لأول شارع على اليمين، اقطعي حي «الدرازين» لتصلي إلى الباب الكبير ذي الدفتين. إنه هناك بالتأكيد لن تخطئي في الوصول إليه.

- الو! الو.

في هذا الوقت بالذات كانت من عادتها أن تصنع الخبز باليانسون، أكيد. اصرخي بأعلى صوتك لتسمعك، إن سمعها ضعيف، وقولي لها أن تأتي بسرعة، وإن ابنة عمها تنتظرها.. شكرا يا ابنتي، تحياتي، نتحدث طويلا مرة أخرى هل فهمت؟ إنها مدة خمس عشرة سنة من الفراق.

بعد خمس عشرة دقيقة وجدت ابنة عمها، كانت تكلمها بنبرة فريدة لا تحسنها إلا أمي، من دون أن تعير للزمن أي اعتبار، تحكي الذكريات وتضحك، تطلب المزيد من التفاصيل، وتسأل عن كل شيء حتى عن قطة طفولتها الصهباء المرقطة التي كانت لا تأكل إلا الخضر.. أوه! المسكينة، «بلزبيت»! الله يرحمها، أنا متأكدة أنها مع الملائكة في الجنة.. ماذا تقولين؟ ستة أطفال؟ أها! ثلاثة أولاد وثلاث بنات. لم أكن أعرف يا مريم.. أحقا ما تقولين! أولادي أنا يتعلمون لغة المسخ.. لهم فم فرنسي، أنف إغريقي وأعين إنجليزية.. لم أعد أعرفهم وأنا أمهم.. قولي يا ابنة عمي هل تتذكرين قصة سيدنا سليمان.. تذكري.. الجني الذي كان يحاور صوت الرعد؟

بقيت تتكلم حتى أسدل الليل ظلمته، تنبسق في الذكريات كالنمس المترنح الذي يبحث عن مخزون طعامه، تسأل عن الحياة والمدينة، مسقط رأسها، تسأل عن أجدادها، عن البيوت

وعن كل شيء، عن لون السماء، وخرير النهر والعيون، وتحكي لها أخبار الحي، عن الدار البيضاء، عن العالم كله وعن الأخبار التي تسمعها عن طريق السيد «اكتوه».. ألا تعرفين السيد «اكتوه»؟ آه، يا مسكينة.. لا يمكنني إيقاظه في هذه اللحظة، إنه في قيلولة.

بين الفينة والأخرى، كانت المكلفة بالهاتف تردد:

- هل انتهيتما؟

كان صوت أمي يطغى على صوت السائلة.

- كيف؟ لم أنهِ كلامي بعد، أنت تقاطعينني باستمرار، اسمعي يا بنتي: من العيب أن تسمعي حوارنا، ألم تعلمك أمك حسن الأدب؟

- لكن سيدتي، إن الخط مفتوح لمدة أكثر من ساعتين. 42 وحدة، سوف تكلفك الكثير.

- ماذا؟ ماذا؟ تعني أن أدفع لك لأنني أتكلم؟ يا له من زمن؟ ماذا طلبت منك؟ أن تبحثي عن ابنة عمي، ليس إلا. والآن تطلبي الثمن من أجل هذا؟ هل تسمعين يا مريم؟

كان أبي يدفع الثمن. ولم يعقب قط على تمادي أمي في مكالماتها الطويلة. كلما رجعت من الثانوية أجدها في الصالة، هادئة تبتسم وسط صخب الراديو، بنظراتها الثاقبة تشرب الشاي بالنعناع، وبين الفينة والأخرى تتحاور مع أحد المشاركين عبر الهاتف، تتحاور مع أصوات لم تر أصحابها قط، ومع ذلك أصبحوا أصدقاءها.

كل المشرفات على غرف التليفون أصبحن يعرفنها، وباسمها، يسألونها عن صحتها وعن همومها وآمالها. أصبح باستطاعتها

أن تعلمني الجغرافيا الإنسانية أفضل مما تعلمه لي الكتب المدرسية وأساتذتي. من دون أن تهجر بيتها كونت شبكة من المعارف، تزداد يوما بعد يوم، لكنها كانت تتطور كالسمكة في الماء. انقطعت عن الوحدة، هذه الوحدة الموحشة والموغلة في القدم. العلاقات الإنسانية قبل الكتابة، كالصحافة الشفهية والحية، ذات أهمية بالغة.

في نشرة الأخبار المسائية، عندما كان المذيع يروي الأخبار الإقليمية، كانت أمي تلوح برأسها:

- والآن، أخمن أنك ستعلن عن الحريق الذي شب صباحا في العاشرة بحي الجوطية (الخردة)...هاها! ألم أقل لك يا سيدي «اكتوه»؟

6

وقـت القيلولـة فـي «المـراح» (الفنـاء) كانـت تغطي رأسـها بالشال، ترقد بالقرب من شجرة الموز العتيقة التي لم تنتج قط أية فاكهة، لكنها كانت تمنح الظل. بواسـطة المسـطرة والبركار كنـت آخذ مقيـاس قدمها. ونجيب يتكلف بكتابـة الأرقام على الحائط.

- الطول: 22 سنتيمتر.
- لقد قيدت ما قلت، أيها المهرج الصغير.
- عرض مقدمة القدم: تسعة سنتيمترات.
- تسع.
- عرض الكعب: خمسة سنتيمترات.
- خمسة سنتيمترات. وبعد؟
- هذا كل شيء. سَطِّر تحت واجمع الحساب.
- حسن! بإذن الله!.. هاي! قل أيها المهرج الصغير، ألم تخطئ في أخذ القياس؟
- كيف ذلك؟
- وجـدت 36 سـنتيمترا. هـل تريد أن تقـول إن طول قدمها يصل إلى 36 سنتيمترا؟ لا أصدق!

- أنـا أتكلـم عـن مقـاس قدمهـا يـا مـخ «اللوبيـة اليابسـة» (الفاصوليا اليابسة)، إنها تنتعل مقياس 36.

- أها!

لم يقتنع، رأيته بطريقته، يحك رأسه بإبهامه وعند خروجه لمحته يضع «بلغة(*)» أمي في جيبه.

عند بائع الأحذية الرابع عشر، بعد الظهر وجدنا ما يناسب أمي: الجلد، واللون والشكل، كان تاجرا متفهما، يمزج التقليدي والعصري واستطاع في رمشة عين أن يقارن المقياس على نعل أمي. كان يضع طربوشا عصريا، وأسنانا من الذهب. كما يضع مجموعة من أقلام الحبر الملونة في جيب سترته. في ابتسامته شهامة ممثل الشعب.

- أنـا صديقكم، كذلك صديق الوالد، هاه؟ منذ العام 1919، محل ملتزم، شريف ومضمون، العائلة نفسها من الأب إلى ابنه، من دون مشاكل أقسم على ذلك. من النوع الممتاز الرفيع بثمن الجملة، انتبه! انظروا إلى هذا يا أصدقائي، هاه! من أجل أميرة. تبحثون عن مثله، في فرنسا وألمانيا واليونان لن تجدوا مثله، هاه! ليس له مثيل! من جلد التمساح، مصنوع يدويا، احذروا! المسه، المسه إنه ناعم، هاه! متين، رفيع وعصري، أقسم لكم!

نجيب أشار إليّ بعدم الموافقة. وكنت على رأيه. لم يكن يخصنا جلد التمساح، حيا أو ميتا أو مقطعا. ما كان يخصنا هو ذلك الصنف المعروض في الواجهة. الحذاء الطويل ذو الكعب العالي، الأحمر اللامع الذي يعكس أشعة شمس الغروب، كأنه مرآة. لقد

(*) حذاء مغربي خاص ينتعلونه عندما يلبسون الجلباب.

أبهرنا، بدا لنا من بعيد كأنه منارة. كنت أتخيل أمي ورجليها المتلألئتين بالحذاء الذي تحب والفرح في عينيها والبهجة في أرجاء المكان.

التاجر صاحب الطربوش يزيل طربوشه، ينظر في أعيننا مليا، حدد معنا ثمنا مناسبا وغلف الحذاء بورق الحرير، وحزمه بخيط أحمر مناسب للون الورق، وأعطانا هدية، كانت عبارة عن لبّاسة أحذية من المعدن، ومقبض طويل؛ كان واقفا أمام المتجر ينظر إلينا نبتعد. لم يكن يبتسم، كانت الواجهة تبدو حزينة من دون الحذاء الذي اشتريناه قبل لحظة.

اشترينا كذلك فستانا، ولكن بعد نقاش طويل، كانت البائعة تطرح علينا أسئلة كأننا أطفال مفقودون في الغابة، وردّ عليها نجيب بعينيه الجاحظتين:

- سيدتي أو آنستي، بعبارات متقطعة، (كان يمضغ العلكة)، اسمعي إذن، لا نريد قميصا للنوم، مطلقا ! ولا قميصا منمقا. على كل حال، لا أعرف ماذا أريد. فيما يخصني ويخص أخي، سنختار سروالا وقميصا بأعين مغمضة. لكن الأمر لا يخصنا. إنه يخص امرأة لم تر مثيلا لها منذ قرن من الزمن. ولها ذوقها وأفكارها، أؤكد لك ذلك. وأحبها أكثر من نفسي. وكل ما أريده لها هو فستان. فستان، هل فهمت! بسيط وأنيق كما هو. على حاله لا يحتاج إلى روتوشات لكي يكون كما هو. إذن لا بالقصير ولا بالضيق، بصدر مغطى وأكمام طويلة حتى المعصم وبالأزرار، وملون بصور الأزهار أو الطيور، بلون فاتح ومحتشم في الوقت نفسه. ذو قصة مستقيمة ويصل حتى الكعب. بالنسبة إلى المقاس

فليس هناك مشكلة. تقريبا بهذا الطول (أشار إلى صرته) ونحيفة كأخي (أنزل يده الثقيلة على كتفي). هل عندك هذا أم لا ؟

كان لديها الطلب. بسرعة لمته في كيس من الكارتون وقالت:

ومع هذا ؟ قفازين؟

قلت:

- لا. قبعة. لا مجال للاختيار، نوع القبعة الذي تحبه لم يصنع بعد.

- نعم، رد نجيب. سنرجع لرؤيتك في شهر ابريل 1972. أكيد.

في الغد كان يوم الأحد. ذلك اليوم يمضيه أبي في المزرعة على بعد عشرة كيلومترات من المدينة، بالقرب من البحر. بصحبة الخيول المتوحشة، عدة هكتارات من القمح والشعير والطماطم والصبار الطويل، وبوحشتها المترامية من أفق إلى أفق، من صوت الصراصير الحاد إلى صوت ارتطام أمواج البحر، تحت قبة السماء الملتهبة بأشعة الشمس الحارقة.

كنا نسمعه ينهض باكرا، على متن عربة يجرها حصان، كانت خطوات الحصان مبتهجة، حيث أجراس حبل اللجام مع الفضة. عندما يعود مع حلول الظلام كنا نعرف ذلك من بعيد، السماء والبحر كأنهما مملوءان بتلك الأجراس التي ترن في فضاء أزرق تتخلله رغوة بيضاء كأنها صوت حبات الزمرد. والحصان الذي أفك لجامه كان لا ينظر إليّ ولا ينظر حتى إلى «علافته» (*)، إنه لايزال يفكر، يفكر لمدة أسبوع في إخوته الأحصنة الحرة. أقول:

(*) كيس يوضع فيه علف يعلق في عنق الحصان.

لماذا إذن لا تكون أمي؟ قلت بصوت مرتفع ليلة بعد ليلة، ورأسي على الوسادة. يوما ما سيكون جميع البشر كذلك أحرارا. نجيب لا يقول أي شيء. كان يشرب الجعة قبل النوم.

لم ينجل الفجر بعد على العمالقة، كنا نحن واقفين، أنا وأخي. أفقنا أمنا، رتبنا بيتها وفطورها ومشطنا لها شعرها وألبسناها. أعطيناها مرآتها الحديدية المصقولة لكي تتمكن من التأمل في نفسها، لكنها كانت تتأمل في أعيننا. لم تنطق بأية كلمة، وكذلك نحن بقينا صامتين. لم نعد نعرفها. إنها ليست أمنا التي كنا معتادين عليها وقتئذ، عادية ومطمئنة، صورة، واجهة زجاجية، صورة مطبوعة.

أصبحت أطول بالحذاء ذي الكعب العالي، ملفوفة في فستانها الطويل، فجأة بدت في شكل امرأة، وفجأة اكتشفنا أن لها سيقانا جميلة، هيئة رشيقة، لها خصر ونهدان، كل الأشياء التي كانت مخفية في القمصان التقليدية، وبالأخص تلك التي كانت من صنعها، كانت إلى الآن ملفوفة بالجهل والسكون.

وكنا، أنا ونجيب، على ما يبدو نشعر بالحرج.

لمدة بقيت أمامنا، جامدة، لم تقل شيئا، لم يعلق أحد بكلام أو أفكار، كل شيء جرى الإحساس به، من هذا الطرف أو من الطرف الآخر، ومن طرفنا نحن الثلاثة. كنت أول من رسم أول ابتسامة، وتبعتها ابتسامة عريضة من طرف أمي، ثم لحقت الابتسامة إلى وجه نجيب. بهدوء، بهدوء. ثم في لحظة جاء الضحك ليحررنا من هول العاطفة.

- هيا، قال أخي، سيري يا أمي الصغيرة، تقدّمي بضع خطوات.

تقدمت بنصف خطوة. كادت لحظتها تقع. كان الكعب العالي هو السبب. لم تنتعل في حياتها إلا النعل أو الخف كلما زارنا أحد الضيوف. في كل الأوقات كانت تمشي حافية. قالت متأسفة:

- لن أتمكن أبدا. هذا الشيء ليس مقدرا لي.

- حاولي مرة أخرى. ستتعلمين بسرعة. هيا، حاولي إرضاء لولديك. هيا!

كانت تصدقنا، كانت تريدنا أن نفتخر بها. تقدمت إلى الأمام. تضرب الهواء بذراعيها، تميل إلى الوراء.

قالت والدموع على خديها:

- لا يمكن فعل أي شيء. هذا الحذاء جميل أقسم لكم. أحب ألوانه. أحب هؤلاء الأوروبيين الذين استطاعوا صناعته. لكنهم لا يعرفون أرْجُل الناس عندنا. من دون شك لا يعرفون.

حاولت مرات عديدة بين ذراعي، ثم بمساعدة أخي الذي كان يشد قامتها بذراعيه المشعرتين. كانت تمشي منحنية هنيهة، كالمركب المسمى «ذئب البحر العجوز» وهو يشق الضباب. وأحيانا تنحني لجهة كأنها جناح في ملعب الريكبي. وكانت تمشي كأنها رضيع له اثنا عشر أو ثلاثة عشر شهرا، الذي يحاول أن يخطو أولى خطواته والكل يصفق له.

- امشي، هيا! برافو! برافو!

منهزمة، نزعت الحذاء، جلست القرفصاء وأجهشت بالبكاء.

نجيب يفرك يديه، تنفس الصعداء، أخذ الحذاء، وهو يصرخ:

- لا تبكي، أمي! لا يهم ذلك. سأصلح الأمر، أنا راجع بعد خمس دقائق. وأنت، يا فصيلة عرعار المقبرة، لا تبقَ هنا مسمرا تطلب الغيث أو تنتظر نزول الأفكار من السماء. اذهب وسخّن الشاي لمخلوقة زمننا.

عند رجوعه كان يحمل الحذاء من دون كعب. قطع الكعبين عند أحد أصدقائه الحرفيين في الخردة الذي كان يعطيه الجعة، وجد لديه المنشار المناسب.

هل أقول لكم إن أمي لم تعد تفقد التوازن، وهكذا انتعلت بواسطة الحضارة الغربية المنقحة والمصححة بالطريقة المغربية؟ هل أزيد بأنها أصبحت تتمتع بنوع من الاهتزاز؟ أوه! خفيفة، هوائية، كمركب شراعي يبحر في المحيط. ثم بعد ذلك تقريبا وجدت قامتها الاعتيادية. ومن دون فستانها ترجع أمنا عادية.

- والآن، أين المفتاح، سأل نجيب بصوته الفظ.

- أي مفتاح؟ ردت أمي.

- ذلك القرن الذي يأخذ شكل المفتاح والذي ندخله في فتحة الباب ويصدر صوت كليك كليك: دورة إلى اليمين ليغلق، ودورة إلى اليسار ليفتح.

- نعم. قلت لها. هنيئا لك مفاجأة بسيطة: ستخرجين معنا.

- لكن.. مستحيل.

- بالتأكيد، إن ذلك ممكن، يرد نجيب بلطف. ماذا تظنين إذن؟ لماذا اشترينا ذلك الفستان الجميل، هاه؟ وذلك الحذاء العصري، هاه؟ هيا، يا أخي الصغير، خذ ذراعها، أنا أتكفل

بالذراع الأخرى. مستعد؟ واحد، اثنان، ثلاثة، انطلقوا!
دفعناها على طول الفناء.
- أولادي.. اسمعوني، لا، أولادي.
- لا، سيدتي... لا أسمع شيئا. لا، أخي لا يسمع كذلك. هاه، هل سُدت أذناك أنت كذلك؟
- أنا أصم، علمت ذلك الآن. كم كان ذلك مضحكا! أعلم أن ربي خلقني بسدادات من الفلين محشوة داخل ثقب الأذن، لكني لم أنتبه إلى ذلك قط.
- أنا كذلك، يرد نجيب.. لديّ سدادات من الإسمنت، هاها.
فتحنا الباب وخطونا إلى الخارج نحمل أمنا كأنها أحد المتظاهرين المرفوع بين رجلي أمن. وكانت تردد جملة واحدة بصوت حاد أحيانا، جهوري أحيانا أخرى ثم توشوش.
- لكن ماذا سيقول أبوكم؟.. لا، لا، لا، لا أقدر.. من أجل محبة الله.. أرجوكم، يا أولادي.. لا أحب، لا أحب السينما، إنها شيء غريب بالنسبة إليّ.. هيا نرجع إلى الدار.. تعرفون جيدا أني لم أخرج قط.
- إيه إذن، رد نجيب ضاحكا: الكل سيتغير. أديري ظهرك لذلك البيت وذلك الماضي الرتيب، امشي، امشي إذن! انظري حولك! افتحي عينيك التي منحك الله إياها عند ولادتك. إن هذا العالم لك أنت كذلك. إنه جميل، أليس كذلك؟ تكلم أيها المهرج الصغير!
- همممم!
- هذا غريب، ألم تلاحظي ذلك؟ هل سبق أن رأيت هذا الحي؟

- أي حـي؟ أوهاهـذا الحـي؟.. لا، قـط. كأنه نبـت لذاته. هل سمعت العمال يشتغلون البارحة.

- أنا؟ ماذا تظن؟ نمت.. هيه!

- قل، وهذا المتجر؟ هل تعرفه؟ (أشار إلى البقال الذي نتبضع منه نهارا وليلا).

- بصراحـة، لا.. ربمـا لديهـم رافعـات وآلات تعمـل بصمـت. يعيش التقدم!

- الشمس تسطع. هل رأيت الشمس الحرة في السماء؟

- أنـا؟ لا. أنـا مجرد سـجين ينتقل من سـجن إلـى آخر: من البيـت إلـى الثانويـة والعكس صحيـح، وبقية الوقـت أبحث عن الشمس في كتبي القديمة.

بسـبب طريقـة مشـيتها، كانـت خفيفة متدلية بـين ذراعينا تحـاول أن تخطـو، أن تتجـاوب مع أجسـامنا وبأصدائهـا، كانت مجرد سمع ونظر لمن يحملها. الألوان كانت جد ناصعة بالنسبة إليهـا، ويبـدو كأنها أعمتهـا في مطلـع الزقاق، وكانـت مع ذلك تسـتمر فـي المشـي، بطريقـة آليـة وهي ترتجـف، الرأس شـامخ والظهـر عمودي، تضع رجلا أمام الأخرى، الواحدة بعد الأخرى، تواجه، ليس الإنسان ومدينته الأخطبوطية، لكنها تواجه عصابة من السـباع التي تزمجر في الحقيقة وليس في الحلم. ولم تكن خائفـة، تمشـي إلى ما بعـد المعركة. وكانت الإشـاعات في البازار تنفجر فوق رأسـها كالعاصفة، وموجة الزحام تمطر عليها كأنها مرض زرقة العين. لم تقل شـيئا، تمشـي. نسـيم الحرية، كخيط شـمس يلوح من صينية شـاي نحاسية، الذي كان قديما، واقترب

أن يكون ذاتها هي؛ أشياء يتعين مشاهدتها بهدوء، باحتشام، من دون تسرع أو حدة.

وراء السوق المغطاة، كانت هناك حديقة. حديقة طفولتي التي كنت أتنزه فيها من وقت إلى آخر. كانت ملجئي. المكان الوحيد الذي كنت أقرأ فيه للشعراء الذين ألهموني. «فيرلين» لم يكتب شيئا هنا في هذه الحديقة، ربما. إنه هنا، هكذا منذ القديم، بدأت الكتابة؛ لأنني لم أكن أحيا.

شجر الجميز، النخل، الصنوبر، الأرز، الأوكلبتوس، أمي كانت تنتقل من شجرة إلى أخرى، تعانق كل الأشجار، وتكلمها. كانت الأشجار تتجاوب معها، ضحكت مع الأشجار وبكت معها، وكانت الطيور التي تغرد في قممها شاهدة، بين السماء والأرض، في معزوفة معطرة بعبير الزعتر، بالأرض والمستكة. يا لها من خضرة! خضرة هائلة دفعة واحدة! وكل هذه الحرية!

أنا ونجيب جلسنا على كرسي ولعبنا الورق، بهدوء ومن دون غش، كنا نلتفت إلى تلك المرأة التي تنزع حذاءها، تنتقل فوق العشب بخفة شبح نحو عين الماء الصغيرة التي كانت تسكب قطراتها المتلألئة بين أشجار الميموزا والبوراش.

هناك جلست، فوق العشب، تضع قدميها في الماء. وكانت تأكل العشب، قبضة نتفتها ومضغتها، قشة بقشة بجذورها وترابها. وكانت تسرح بنظرها بعيدا، ما وراء المرتفعات، الأشجار والأفق، وراء ذلك الأفق الذي كان يسمى الطفولة. هناك انغمست فيه وهي امرأة في عمر الألعاب والدمى. دمية، خُنقت بواسطة القانون ومن أجل الواجب. كان الرجل القوي الذكاء الذي تزوجها وهي

صغيرة، الرجل ذو الفعالية الذي كان يستطيع أن يحول رقعة الأرض العارية إلى عملة صعبة وإلى حضارة معجونة بالنفط المتدفق، الرجل المحافظ على البرّ بزمانه، وبالأخلاق وبالشرف، كان يطبق القوانين. وبطريقة شرعية. حبسها في المنزل منذ زفافها إلى ما بعد هذه الظهيرة حين أخرجناها. لم يسبق لها أن تخطت عتبة الدار. لم يخطر في بالها ذلك قط.

سكتت العصافير، وتحركت أغصان الأشجار في عناق حار، نسيم المساء البحري هب ليداعب الأحزان، وكل غضب - يهدئ الأحياء والأشياء. جمعنا ورق اللعب من دون أن نعير أي اهتمام لمن ربح ومن خسر. ذهبنا نبحث عن أمنا، ساعدناها في الوقوف. لكن، قبل ذلك، شربت من ماء العين، بكفها.

ألبسها نجيب فردة، وأنا ألبستها الأخرى. عندما غادرنا الحديقة كانت المصابيح تضيء دفعة واحدة طول الشارع، ما بين السماء والأرض. آنذاك لاحظنا على فستان أمي بقعة خضراء، طبعت بالعشب الذي كانت جالسة فوقه.

7

كان سرها الأول. طوته مع فستانها ولمته في خزانة ملابسها. إذا كانت لمّحت له ذلك المساء بعد انتهاء العشاء - وترتيب المائدة وإعداد الشاي بالنعناع - إلا أن ذلك كان رغما عنها. كان أبي يحاول التحدث في أمور زراعة الخضراوات المكثفة والأسمدة الكيماوية، و«ضرورة إعادة النظر في الميدان الفلاحي برمته في علاقته مع مآل الصناعة». لمن كان يتوجه؟ ليس إلى أبنائه. نجيب وأنا كان علينا الاهتمام بشيء واحد: دروسنا. ثم احترام عالم الوالدين أثناء وجبات الطعام، ثلاثة لقاءات يومية وفي صمت.

- جاءت بعثة أمريكية عبر البحر لبلادنا من أجل مساعدة أبناء عمومتها في أوروبا. وهدم أبناء عمومة آخرين في أوروبا. حقبة جديدة بدأت. مهما كان المستقبل؛ ماضينا انتهى. أعمال همجية ستطال كل الأرض. كل حرب ليست مجانية. كل شيء بالمال، حتى الخدمة. نحن الذين لا علاقة لنا بذلك النزاع الكبير سنتورط عندما تنتهي تلك الحرب؟ ما وراء تحويل الاختصاصات، ما وراء السياسة كذلك؛ إنها مؤسساتنا العتيقة؛ مكوناتنا الاجتماعية، نظرتنا إلى العالم منقلبة،

ستكون موضوع نقاش، إذا لم تكن مرمية على الأرض. موجات جديدة، الأجيال الصاعدة ستفكر في المبادرة، ليس من أجل التحضر أو الثقافة، أو الإنسانية أو السعادة، لكن من أجل الاقتصاد العنيف وحرارة المضاربة، والمردودية، والإنتاجية، والإضرابات والقمع، إلخ...

كانت أمي جالسة أمامه: جمهوره. الرأس ثابت، وكذلك العينان اللامعتان بنور العزيمة- وكأس الزجاج التي تلمس شفتيها كانت مملوءة عن آخرها وطفح بها الكيل، ليس بالشاي، لكن بالاقتصاد السياسي. ماذا يعني هذا؟ بين الفينة والأخرى كانت تنفخ على المشروب الغامض والحارق قبل أن تشرب جرعة، تهز رأسها، توافق، في حين تفتحت عيناها الكبيرتان وأضحت أكبر، وأعمق. وقالت:

- والأشجار، كذلك؟

- أية أشجار؟ يرد أبي. هل ذكرت الأشجار؟

- أوه لا! أجابت أمي بكل برودة. لقد نسيتها. تكلم لي عن الأشجار. كيف تعمل من أجل الزواج والحصول على الأولاد، وكيف تغني لشمس الغروب؟

من فوق المائدة اتكأ نحو زوجته. يتأمل في نظراتها، وجها لوجه.

- ذكروني، عن ماذا كنت أتكلم منذ ربع ساعة؟

- لا أعرف، ردت أمي. كنت أعرف أنك لم تتحدث عن الأشجار ولا عن العصافير. ولا عن جدول ماء صغير.

- آه! حسنا. حسن جدا. هذا كل ما تتذكرينه؟

- أنا متأكدة.

- أنا كذلك. اسمعي، سأحكي لك حكاية: أنا حرثت فدانا، زرعت القمح وحصدت الفئران. هل فهمت؟

- نعم. إيه، فهمت؟

- ما تفسير هذه الأعجوبة؟

- أية «أعجوبة»؟ كل الناس يعرفون أن في الحقول فئرانا. كانت جائعة وأكلت القمح وتناسلت. أنا مسرورة لهم. لكني لا أفهم كيف تفعل الأشجار للحصول على الأبناء. وماذا تأكل؟

- ساد صمت مطبق.

- الحمد لله! أنهى أبي حديثه، وهو ينهض. سأذهب إلى النوم.

وهكذا كان الموقف: الدهشة رسمت خطوطا على شفتي أمي، والحزن جعلها ترتعد.

- لكني ماذا قلت؟ ماذا قلت؟

- لا شيء، رد نجيب. يجب أن تنتبهي. ربما في السنة المقبلة بمساعدة الأمريكان سيزرع الفئران ويحصد القمح.

- أو أشجارا، قلت بصوت منخفض. وفي انتظار ذلك، اكتمي السر، لا تقولي شيئا لأحد. وبعكس ذلك، لن ينبت شيء إلا الريح.

انظروا يا أبنائي! أنا أمكم! هل سبق أن بحت بسر؟

- أوه، لا! قلت صائحا. تقريبا، أبدا.

- إلا خمسة أو ستة مضروبة في عشرة، قال نجيب. من وقت إلى آخر أليس كذلك؟

- كانت أسرارا تافهة، احتجت أمي. من أجل الكبيرة، الأسرار الحقيقية، إني قبر، وأنا مدفونة فيه.

- هكذا أحسن! رد نجيب، ابقي هكذا إلى موعد النزهة المقبلة.

- متى؟ متى؟

- قريبا. يسعد مساءك أيتها الأم الصغيرة.

في الغد باكرا اتصلت هاتفيا بابنة عمتها. تكلمت عن فستانها الجديد، وحذائها، والحديقة، والخضرة، ولكن ذلك كان بصورة مقتضبة، وموضوعية، وتقريبا ماركسية، أو شيء من هذا القبيل:

- ألو، مريم؟... قولي لي: الماء من دون صنبور، يأتي من حيث لا تعلمي، يجري كثعبان الضوء على العشب الأخضر والأزهار المختلفة الألوان، على بساط من الرمل والحصى الصغيرة، ماذا؟... آه! جدول ماء!... هل سبق أن رأيت جدول ماء أنت؟ اسمعي، يا ابنة عمي، هل سبق لك أن رأيت من فوق السطح هؤلاء السيدات الغربيات بفساتين ضيقة لاصقة عليهن كالجلد الاصطناعي وينتعلن الأحذية بالعكاز؟... مضحكات، أليس كذلك؟... أكيد أن ذلك جميل، لا أقول العكس؟... الأزهار التي تمشي على سيقانها... لكن ماذا يفعلن طوال النهار، من متجر إلى آخر؟ أليس لهن بيوت يرعينها؟ هل هن تائهات أم ماذا؟... نعم، أكيد، أكيد... يمشين ويرجعن بكل حرية، لا أحد يراقبهن... لكن هناك شيئا لم أفهمه: إذا كن بالفعل حرات، لماذا نراهن مضطربات؟ لماذا يجرين في كل الاتجاهات؟... الشخص

الحر هو شخص جامد كالشجرة، بربي نعم... والبيت من دون جدران ومن دون سقف، مشرع على السماء، كله اخضرار، مزروع بالأشجار والزهور، ماذا يكون؟... أها! حديقة؟

هكذا كل شيء. كان الهدوء محل اختبار يوما بعد يوم، مربوطة لساعات - مستعدة للانفجار.

- ألو، أنا في طنجة؟... صديقتي العزيزة، أوه! كيف حالك؟... مدة طويلة لم أسمع صوتك... ستة أيام على الأقل... هل لديكم حديقة في المدينة؟... كيف؟ هنا يوجد الكثير منها؟

في الصباح، في قسم الرياضيات، عندما فتحت دفتري أرى على الصفحة رسومات، شجرتين، واحدة كبيرة ومرتفعة، والأخرى ضعيفة مثلي: كانت الأوراق متناثرة بعناية وبعض أزهار الورد، صفراء، زرقاء، وبين الشجرتين خيال، دائرة للرأس، أربعة خطوط من أجل الأطراف، بيضة للتعبير عن الجسد. أمي من دون شك. إنها تبتسم.

1

8

كان يتعين حرق المراحل. في نزهتها الثانية ذهبنا بها إلى السينما. من صنف ما يسمى «كوليزي» الأحياء الشعبية وما قبل الحرب، التي كان العرض يستمر فيها من الظهيرة إلى منتصف الليل، وفي الوقت نفسه كانت الفرجة على واجهتين، ديكور مزدوج وحركة مزدوجة: على الشاشة وفي القاعة. وبالأخص في الصالة. كان الشبان يأتون مجموعات، مصحوبين بالقيثارات (من أجل المكساج) أثناء المقاطع الرومانسية. المفرقعات ومقاليع (من أجل لقطات رعاة البقر والقتال)، قرون (أكياس من الورق) الفول السوداني، الرقص، الصفير ورغبة جامحة من أجل اللهو. الكل يدخن: الكيف، التبغ، الغليون، السيجار، وأشياء أخرى لم أقدر على وصفها.

عندما دخلنا، وقف الجميع دفعة واحدة. هذه الصالة، لم تطأها قط رجل امرأة. كانوا يدرسون أمي من شعرها حتى قدميها، يقدرون قامة أخي الضخمة، من تحت إلى فوق، ومن كتف إلى أخرى، ثم يجلسون محبطين. وخلال تلك الأثناء لم أسمع إلا ثلاث صافرات، عددتها.

تواصلت المحادثات، بين مجموعات نشيطة متقطعة

بضحـكات ومشـاحنات واختلافات في الـرأي: بريلان، قلت لك ! صحيح، أن ستالين يشبهنا، إنه من جنسنا... أيها الآس(*) المربع اصمت، يا رأس البصلة... حينئذ، قالت له: اسـحب ركبتك... ألا تفهم؟ أبعد ركبتك، هاهاها!

صوت على المكبّر الذي يشبه صوت مؤذننا يرتفع:

- هنا، المدير. انتبهوا، انتبهوا، العرض سيبدأ. فيلم لم تشاهدوا مثلـه قـط. حصري عالمي. إنتاج رفيع مـن ناحية الألوان من صنع هوليوود، أمريكا. كان عليّ أن أقتنيه بالدولار. إذن الصمت، أعزائي المواطنـين! الـ صـ مـ ت!... وأحذركـم: عند أول رمية، قـارورة جعة، حبـة طماطم، حجـرة، برتقالة فاسـدة، إذا أصاب شاشـتي مكروه، أقطع العرض ولا أعوض أحدا. هل أنتم موافقون؟

كل الصالة ترد:

- موافقون، يا أبي!

بجانبي طفل غليظ الخدين يبصق بصوت عالٍ:

- أرسل لفتك يا جدي(**)!

أطفئت الأنوار وسـمع دوي: « آ- آ- آ- آ- آ آه!» « ابن شـهرزاد» (كان ذلـك عنـوان الفيلـم) لاح فـي الأفـق البنفسـجي، يقطـع الصحاري على ظهر حصانه من أصل «فار ويســت»، يتوقف عند الواحــة المزروعـة بالنخيل بلون أخضر لامـع، يحط رجليه على الأرض، يظهـر بمنتهى روعته. أسـنان بيضاء تحت شـارب رقيق، معطف مصارعي الثيران وسروال قرصان.

- ما ذلك الظل؟ صاحت أمي.

(*) ورقة اللعب برمز A.

(**) شريطك السيئ.

- إنه أمير شرقي، يرد نجيب. بطل الفيلم.

- «دوكلاس فايرينكس جينيور»، يطلق صوت من وسط الصالة. إنه أقوى الأقوياء الذي يتقن حرب المسايفة ويسحر النساء بابتسامته.

- لا يا سيدي، ردد ذو الخدين. «ايرول فلاين».

- اصمت، ترد أمي، ألا تصمت أنت!

وتجلجل الماندولين بمعزوفة، وتمزق ضحكة بغل الصالة إلى نصفين، وتتردد المفرقعات في كل أركان الصالة، بينما تطقطق المائتا فك حبوب الفول السوداني، وما وراء النخيل يظهر أعراب يوجهون أسهمهم لابن شهرزاد الذي يربت على عنق حصانه.

- انتبه، انتبه! يصرخ صوت حاد. إنهم هناك، سيقتلونك، التفت، اركب حصانك واهرب! أسرع، أسرع!

إنها أمي. وسط موجة من الضحك عمت الصالة، وسمعت صوتا يستهزئ:

انظري ماذا فعلت يا عمتي! لقد صرخت بقوة والمسكين «دوكلاس» كان ينصت إليك أنت بدلا من الانتباه إلى أعدائه. لم يسمعهم قادمين. الآن، انظري إليه: إنه مربوط، مقيد، انتهى أمره، ألا ترين؟

وقفت أمي وسط الضوضاء والظلام، وسط الدخان الكثيف كالسحاب، لترد بكلمات متقطعة:

- جهلاء! كلكم جهلاء! قولوا، من بدأ أولا؟ كان عليكم السكوت بدلا من القباع كالخنازير لتفادي ذلك. من المخطئ إذن، هاه؟ من المخطئ؟

- هيا، اجلسي أمي، رد نجيب. اهدئي. سترجع الأمور إلى حالها، سترين.

لم تصلح الأمور، بالعكس. كان عاري الجسم، بلا أي شعرة، مزيت الصدر، حليق الرأس، حاد الشارب، كان بطلنا مربوطا على المنصة وسط الساحة العمومية الغاصة بالجمهور، ويأتي أسود غليظ يلبس تبانا من جلد النمر، ليبرحه ضربا بالسوط.

الممتلئ الخدين يضحك هازئا، والصالة تهتز.

- هيا يا مامادو! انتقم من أجل جنسك!

- هذا يكفي، هذا يكفي! كانت أمي تفرك يديها وتقول اذهب لنجدته يا نجيب. أنا آمرك؟ هيا! في سبيل الله. إنك الأقوى، قبل أن يلحق به الأذى. هيا، يا بني، أنا راضية عليك إلى آخر عمري.

نجيب لم يتحرك، كان تحركه غير لازم. على متن عربة، حضرت أميرة تضع على رأسها تاجا. تلبس بدلة سباحة براقة، خفيفة جدا. تعالت أصوات مئات الحناجر وسط التصفيق والمفرقعات:

- تعالي هنا، أيتها الجميلة.

بإشارة لطيفة بسبابتها تسحب الجلاد وتقول.

- توقفوا! توقفوا! أنا شهرزاد! أنا أمه.

فكت القيود بسرعة ساحر، دوكلاس فايربنكس يرتمي في حضن شهرزاد، وأمي تصفق بحرارة، بينما كانت وراءنا الماندولين تعزف رقصة البطن.

- شكرا، ترد أمي. عملت الواجب، أنقذت ابنك، سيجازيك الله مائة حسنة.

كانت تشـارك في كل المغامرات والحبـكات، تتابـع البطل كأنه ولدها، بعينيها، بصوتها، بحراسها، بوعيها كانت تعطي النصائح، تنتقد، تسب بقية الشخوص - واقفة، بكل حيوية بشعر متشعث. وعندمـا انتهت هـذه الدراما الغريبة بزواج واشـتعلت الأنوار في الصالـة، تراهـا هناك لاهثـة، منبطحة علـى كرسـيها وذراعاها ترتجفان.

فـي فتـرة الاسـتراحة، كانت تلتهـم الحلـوى وتتكلم عن الفيلـم. تحكي لنـا نحن أبناءها، كأننا لم نشـاهد ولم نفهم شـيئا، بطريقتها. كانت تتريث لتحكـي التفاصيل، تحفرها، تعلـق علـى الأحـداث، تحـذف تلـك التـي لا تعجبهـا، تؤول المعنى، تعطي تفسيرا لأحلام استوديوهات هوليوود لتحولها إلـى حقيقـة، ويتحول ذلك إلى قصة لا علاقة لها بسـيناريو الفيلـم «قديمـا، كان أحـد الأولاد من عائلـة كريمة قد حاول عصيـان أمـه وذهب بعيدا في مغامرة فـي بلد غريب، وهنـاك ضاع، المسكين، لم يكن له مأوى ولا أصدقاء، لا أحد، لا أحد... ارتبطـت بـه جنية. في أحـد الأيام بانت لـه ومنحته حصانا باسـتطاعته وبعيون مغمضة إرجاعه إلى موطنه عبر البحار والصحاري. لكن...».

فجـأة سـاد الصمـت، والتفـت. كان الجمهـور قـد تجمع من ورائنـا، كانـوا يسـتمعون بحمـاس، لا أحد منهم يأكل أو يشـرب، وكذلك لا أحد يدخن.

ومـاذا بعـد؟ سـأل أحد الرجـال في عمـر النضـج. احكي يا عمتي، احكي.

كانـت تحكي، تطـرز الكلام، تركز تصوراتهـا وتجعلها مصدرا للمغامرات. وعندما انطفأت الأضواء جلس الرجل بجانبنا.

- هل تصنعين الأفلام سيدتي؟

- الأفلام؟ لا. لماذا؟ ماذا يعني هذا؟

- يتعـين أن تكتبي السـيناريو، أقسـم على ذلـك. يمكنني أن أعيرك كاميرا أمريكية اشتريتها بالمزاد.

الفيلـم الثانـي كان مـن نوع الويسـترن، الشـريف والعسـكر والهنـود الحمر. تذكرت شـيئا واحـدا: المصادفة، كانـت المصادفة هناك، في ذلك اليوم، على تلك الشاشة. إنه رئيس الهنود الملون الوجه، عرفته أمي. كان من الممثلين في الفيلم السـابق، كان هو من ضرب ابن شهرزاد بالسوط.

كان رئيسـا للقبيلـة، خـرج مـن «محميته»، كانـت أول غلطة. الغلطـة الثانية: أخرَج السـاطور المدفون وتبع آثار فرقة العسـكر التـي يقودهـا البيض. برغـم هيئته، ماذا يفعل مـع أفراد قبيلته شبه العراة ولا يملكون من قوة إلا النبال؟ الآخرون يتوافرون على هندام جميل، قبعات، أحذية وأسلحة لا تخطىء تقريبا الهدف.

أمي تسـترجع أنفاسـها، لم تكن تريد أن يصـاب أحد بالأذى، كانـت تحـب الجميـع. لكن عندمـا تدحـرج الشـريف راكبا على حصانة في واد عميق في كولورادو، نطقت بحزن، كأنها ترثيه:

- آه عليـك يـا الحصـان المسـكين! اللـه يرحمهـا روح! وأنت، أيها الرجل، لقد نسـيت أن من يفعل ذرة شر يراها. لقد اعتديت بالسـوط قبـل قليـل على بشـر، والآن خذ جزاءك. ارقد بسـلام، بالرغم مما فعلت! أسامحك.

لم تنم تلك الليلة. جاءت إلى غرفتي وبقيت بجواري إلى أن صاح الديك. اختلط كل شيء في دماغها. الفيلم الأول مع الثاني، الخيال مع الحقيقة، الحكاية والعنف، وطفولتها التي نسيتها، وهذا العالم المكون من الضجيج والرعب الذي دخلت فيه. وفُتح باب وحيد. من خلال هذه البوابة، ودفعة واحدة، كل شيء يغمرها دفعة واحدة وهي تحاول أن تُبعد الشيء الذي كان غريبا عن ذاتها، أن تفهم عصارة ذاتها وتخصبها يوما ما.

كانت معتادة على العَدِّ على أصابعها (هذا بيتي وسأموت فيه، هذا زوجي، وهذا ولدي، وهذا ولدي الآخر، وكل الأشياء الأخرى لم تكن موجودة بالنسبة إليّ، كانت غير معروفة بتاتا)، معتادة منذ أن جاءت إلى العالم، منذ خمس وثلاثين سنة، على الحياة الداخلية ليس إلا (القليل من التفكير، القليل من الكلام، البعض من الذكريات البعيدة الباهتة، الكثير من الأحلام والتخيلات)، محاطة على الدوام بأمطار الصمت والمحادثات القليلة التي تجريها مع ثلاثة غرباء، مع نفسها، ثم شغل البيت والطبخ. كانت وحدتها أكثر قتامة وعمقا من حركاتها اليومية المتعبة: تطحن القمح، تغربله، تعجن، تخبز، تنظف البيت، تلمع الأحذية، تطبخ، تضرب الطبل، ترقص حافية، تحكي لنا الحكايات من أجل تسليتنا، تطرد الذباب، تغسل، تعد الشاي، الحلويات، تلعب دور المهرج عندما نكون قلقين، تكوي الثياب، تطرز، ومن دون شكوى، من دون شكوى. لا تنام إلا بعد أن ننام، تستيقظ مع الفجر، وبقية الأوقات تكون في الاستماع إلينا. لماذا كانت هكذا حزينة؟ السعادة لا تستوعب من دون حرية.

وفجأة كنا، وكان العالم الخارجي أمامها كالطوفان، كانت خائفة، تصك أسنانها على العناصر الأربعة أو الخمسة التي كونت حياتها لسنوات وسنوات، كانت عناصر قديمة لكنها مألوفة؛ لكي لا تضيع، من أجل الحفاظ على كيانها الشخصي، لكي لا يفوتها الحدث. كانت تحس بمحاولاتنا لإخراجها، كانت تقشر الصدأ من على الروح، كانت تعترف لنا بالجميل على لطافتنا، لا تطلب أكثر. بسنها الذي قارب الخامسة والثلاثين، وبروحها في سن الخامسة والثلاثين. لكن لماذا ؟

كل تلك الأسئلة في تلك الليلة، كل أحزانها تؤدي إلى السؤال نفسه. لماذا ؟ لم تكن تبحث عن رد لكن كانت تريد أن تفهم، أن تكون وليس أن تملك أو أن يكون لديها.

ما بقي من الليل، بقيت بجانبي تحكي. وأنا كنت أستمع. لأول مرة في حياتي. الحجج، السبب، والمجرد لا يهمها. ليس لأن عقلها قد ضمر من الوحدة لكن لأنها لا تستطيع أن تستوعب أي شيء له محتوى خاص به، والكلمات، على بساطتها، كانت لها أحاسيس ومعنى، كانت لها رائحة ولون وبصر ولمس وحس عاطفي. وأنا كنت أبحث عن المفردات داخل ذاكرتي لكي أشرح لها بمصطلحات طفولتي، لكني لم ألق الكلمات المناسبة. كان للكلمات معنى واحد: تلك التي تتجه إلى العقل. كلمات جافة كالعقل، كلمات مجردة من إنسانيتها وغير إنسانية. ثقافة قديمة حية وحاليا مكتوبة. آداب كانت تسمو بالحياة إلى أعلى، عاليا جدا فوق الأحياء وتعطي قدوة للأبطال والأمثال بدلا من أن تهبط لتتوجه لمليارين من الناس العاديين. حضارة أُفرغت -

من سـنـة إلـى أخرى ومن حرب إلى حرب - مـن روحها. لا، لا لم أجـد الكلمات الإنسـانية لأجيب تلك الإنسـانة التـي كانت أمي، مـن أجل إطفـاء غضبها، يا ليتنـي أجد آلـة الإطفائي من أجل إخمـاد الحريق. ومع ذلـك نحن جميعا قابلون للاشـتعال. إذن، أين هو الماء؟

لم أسـتطع أن أجيبها. وكان ذلك أحسـن. نعم، من الأحسن. لأننـي وبـكل عفويـة عانقتهـا بذراعـي، أجلسـتها علـى ركبتـي، وأرجحتها. في صمت، من دون أي كلمة. ثم نامت.

9

في الحفلة كنت أجرها لترقص بالطريقة الغربية، وكانت متألقة بتاج من أزهار النارنج. كانت النساء جالسات على الأرائك، قنينات عصير البرتقال، سجائر تركية، الصالون برجوازي وأمي تنزع حذاءها وترقص وحدها رقصاتها الفريدة، في تناغم مع المقاطع الموسيقية، في حين كان نجيب يتحدث مع الكلب ويعمل في الحديقة عمل الرقيب، في حالة ما إذا ظهر أبي، كان عليه أن يصفق بأطراف أصابعه.

وفي المهرجان، كانت المصابيح الملونة، سيارات الأطفال، الأرجوحات، الإشهار والصياح والإيقاعات كالأمواج المدوية، وأكشاك التصويب نحو أي شيء: أمي تدور فوق خنزير خشبي، وتتدحرج على دودة آلية، عرفت الصعود والدوران فوق أرجوحة كهربائية، تضحك، تصرخ من الخوف والفرح، كان شعرها كالريش المنفوش، يصعد من الأرض إلى السماء. أنا، كنت أرمي قطع النقود في إحدى الآلات، أرجها بحماس ولم أربح شيئا. نجيب كان يصوب بالمسدس، وبالرمح، وبكرة القماش، عند العودة كانت أمي تضم بين ذراعيها دمى ودببة.

هكذا كانت الأشياء: دفتر مدرسي، القلم الرصاص، لوحة،

طباشير وطريقة سمعية بصرية من اختراعي لم أحصل على براءة اختراع من أجلها. الحرف المتحرك كان رجلا والحرف الساكن امرأة، يلتقيان ليكونا أزواجا. إذا كان لحركة لفظية أكثر من حرف فذلك لا يعنيني أنا، بل يخص الجمعيات النسوية. نعم، نوع من التعدد على صعيد الحروف، قبل الإعراب، والثقافة والقوانين الاجتماعية.

كانت تتعلم بشغف، تكتب الحروف والكلمات على كفيها، وفي الوقت نفسه تحضر الوصفات، كانت تنظر إلى يديها وتقول:

- نعم، يتعين أن أزيد الآن الملح. م. ل. ح، ملح. الملح. هذا، الملح.

وكانت تضحك، تفرغ خلسة كل الملاحة في الطنجرة. وحدي، أكلت كل اليخنة، ومنذ ذلك الحين، فرنسا ويوغوسلافيا وكندا، وصفات من كل نوع لا تشبه أي أكلة الأكلة الأخرى.

كانت تحب الحكايات التاريخية بكونها «كانت بدورها حكاية»، كانت تسألني:

- منذ آدم وحواء، كل رجل وكل امرأة في هذه الأرض كان يحب، يعاني، كانت له حكاية تروى. هيا بني احكِ لي كل شيء، منذ البداية.أنا أستمع.

علمتها التواريخ، والمعاهدات والحروب الكبيرة.

- لا ليس الحروب، ولا التواريخ. عندما تتعارك مع نجيب، إذا كنت أتذكر، تلك اللكمات هل تنتقل إلى الأجيال القادمة؟ احكِ لي الجوهر الحقيقي للتاريخ، أنا لا أعرف.. فترة الأمة أو الشعب أو الإنسان حين وقع شيء ما، أريد القول ما وقع من خير. من

المؤكد أنه كانت هناك فترة أصبحت فيها الكلاب والقطط إخوة.

كانت الجغرافيا كذلك هوايتها: كم من الشعوب تتكلم عدة لغات ولها حياة مختلفة! كان عليّ أن أرتجل، أن أمر عبر الجبال والقارات وتاريخها وتاريخ شعوبها، أن أترجم بكلمات مجردة العصور الجليدية، والهجرات، والديموغرافيا، أن أعطي الأمثلة والرموز بالاعتماد على ما كانت تعرف مسبقا.

على ورق ملون ملفوف كانت تلصق الصور: (Angkor)، الأهرامات، برج إيفل، لندن، كاتدرائية ستراسبورغ.. صور الهدايا التي تكون داخل علب الشكولاتة التي لم آكلها قط.

علمتها جسمها. نعم. بعزيمة هادئة. كنت أقرأ كثيرا منذ صغري كل شيء يقع بين يدي، أستعير الكتب من أصدقائي في الثانوية، ومن المكتبة العامة الموسوعات وكتب الطب التي كنت احتاجها.. «انظري أمي، انظري!»، «لكن لست أنا!..» حرام، حشمة، حياء، كل هذا كنت أضعه جانبا، عندما أتكلم لها عن الله الذي تؤمن به، طبعا بكل جوارحها، وأنه الخالق سبحانه خلق الأجسام والأعضاء، ولماذا الحياء؟ علم الأحياء، علم وظائف الأعضاء والألواح الملونة كانت تقوم بالبقية. النكت الحامضة، منتوج تجاربه، والتي كان نجيب يحكيها، كانت جد مضحكة. في سن الخامسة والثلاثين عَرَفت أخيرا ما هي الدورة الشهرية. قبل ذلك كانت تظن أنها مصابة بمرض «خاص» لا يجب البوح به لأي كان، حتى لزوجها.

ما كنت أركز عليه بإلحاح هو قوقعة الجهل، الأفكار الموروثة من قيم خاطئة والتي تسجنها داخل ذاتها. كائن من الرخويات

يخرج من قوقعته في فترة تحوله. لماذا لا تكون هي؟ يمكن أن نرى النور في بلد، نعيش في بلد آخر، ونموت في بلد ثالث. الأرض واسعة، وتسع الجميع. الرخويات تعرف ذلك، نعم، حتى الرخويات.

يوما بعد يوم، كنت أدفعها لكي تعاتب ماضيها. بدءا من هنا، إذا استطاعت أن تهزمه، سيصبح عماها الداخلي نظرهر وحشي، ناقد. في كل الأحوال كنت أحبها. كانت تجادل وكنت لا أتركها لحظة لتستريح.

كان نجيب لايزال هنا، على مسمعنا، مستعدا دائما ليلطف الأجواء بضحكاته المعتادة، أو من أجل إخبارنا بقدوم الأب: كنا نلم بسرعة الكتب، والألواح، وكل أسرارنا. وهو كان مشغولا بتنمية أعماله (المزرعة، العقار، البنك، الصناعة)، لم ينتبه إلى التطور الذي يحول أمي كالبرعم، كان معتادا منذ سنوات على زوجة هادئة، دائما حاضرة، لا تتغير، بما أنه كان سعيدا معها، لم تكن لديها مشكلة، ولماذا تكون لها المشاكل؟ كان دائم الأسفار، وكان الجو يخلو لنا.

كل شيء عند نجيب كان من دون حدود: الأفراح، الهوايات، شهوات الأكل. بالنسبة إلى أمي قام بحركة غير لائقة، حيث باع كتبه ودفاتره ومحفظته ولم يرجع إلى الثانوية.

- هاها ! اللغط نفسه! يرد نجيب.

ما تبقى من دراسته الثانوية (التقنية والتجريبية كذلك) أكملها في الشارع مع عصابة من أقرانه الذين يطلق عليهم اسم «المناهضين للمدرسة». تابع اهتمامه بصيرورة التقدم، بقراءته

للجرائد التي تكذب الكتب. أبي كان يصدق أن نجيب ينتقل معي من صف إلى صف كل سنة، النتائج المدرسية والكتب المدرسية كانت الدليل، تُحضّر وتُعبّأ وتُبصم من طرف أحد أصدقائه أو من أحد المزوّرين عند اللزوم. نتائج جيدة، أحسن من التي أحصل عليها، وتقارير مشجعة تقول: «اعتن بالصغار.. خدوم.. الجائزة الأولى في حمل الأثقال والجري..» وبذلك كان يحصل على المزيد من نقود الجيب كجزاء.

اشترى سيارة وكان يقوم بجولات في المدينة بصحبة أمي كلما سافر أبي، إلى أن حصلت على البكالوريا، بعكس نجيب، حيث عرف أبي الحقيقة، وكان الوقت قد فات، تجاوز نجيب طول المترين، وتعلم فن الاحتجاج ضد المدرسة.. «سفاح»! يجرحه أبي

- «نعم أنا سفاح، وأنت ماذا تكون؟».

لقد بدأ يخدمنا، أصبح الخازن، الحارس الشخصي لأمي. يجازيها عندما تحرز تقدما، فتح لها حسابا بنكيا - حساب بنكي لمن لم تحصل قط على فرنك واحد - يعلمها لعبة ورق جديدة كلما نجحت في حل مسألة رياضية ذات كسر عشري، كانت تحب اللعب، لكنها لا تحب الورقات ذات اللون الأسود، كانت تتخلص منها بكل سرعة على الرغم من كونها أوراقا رابحة، وكنا نعرف كيف نغش، لذا كنا نتركها تربح.

أحيانا كان نجيب يوبخها بأعلى صوته عندما تحصل على درجات سيئة، ولكنه كان بعدها يعانقها ويرفعها عاليا إلى السقف.

- لا تبكي أمي، ستتحسنين في المرة المقبلة. اذهبي لتستريحي.

كان أصدقائي يسكنون في الأحياء الراقية، يلعبون كرة المضرب، يتكلمون عن الآداب والفلسفة. كانوا يستقبلون أمي بحفاوة وفرح. لكنها لم يكن لديها ما تقوله لهم ولوالديهم. كانت هناك كأنها على عجل، الكل اعترف بجمالها، وبحيويتها، لم تكن تحب لعبة «شيري» ولا «المونوبولي».

- أهذا هو عالمك؟ سألتني في طريق العودة. لماذا هم متباعدون ولا يبدون ودّهم للآخرين؟ ولماذا يبتعد الواحد عن الآخر؟

- لكن لا يا أمي، أنت مخطئة. ليسوا مختلفين كثيرا عنا. إنهم جاءوا من بلد أكثر برودة، هذا كل شيء. قليل من الدروس وستفهمين ذلك.

- لكن لماذا هم أسيادنا؟ هنا؟ في عقر دارنا؟ هل تشرح لي؟

- لا أعرف. إنه التاريخ. لكن سبق أن شرحت لك حركات المد والجزر: البحر يمتد، ثم يجزر.

- إذن لماذا لا ينزل في أقرب الأوقات!

هكذا كان أصدقاء نجيب، منتقين بعناية. لقد عزل من عصابته كل أبناء بابا، المراقبين، المثقفين «كل شيء في الرأس، يقولون عنهم، لا شيء في الجسم». اثنان أو ثلاثة من المشردين مستعدون ليفدوه بدمهم، حبر ملك البوكر، العديد من الميكانيكيين، عاطلون محترفون، نادلو مقاهٍ، بائعو الجرائد، محامٍ مخادع، عميد أمني دليل الجحيم، وكل الأشخاص المهذبين، وكل العصاميين خارج عالمهم. نساء، بالطبع: راقصات، قوادات، عرافة، معلمة أخي، حلاقتان، واحدة عندها حزام أسود

في الجودو، عشرات العاملات في دور السينما: يُدخلنَه صالات السينما من دون أن يدفع. كان نجيب يمنحهم قبلة عندما يرينه مقعده (كان يستطيع أن يقبل بغلة) ويضحكة متبادلة. وكان هؤلاء الرجال والنساء والأطفال ينتمون إلى مختلف الفئات الاجتماعية، نجيب بذلك أصبح يعرف كل المدينة، من الداخل، لا تفوته كبيرة ولا صغيرة من مآسٍ وأفراح ومناسبات. كان فعلا أحد سكان المدينة بلحمه وعظمه ودمه، يعيش مع حرارة المدينة.

على متن سيارته التي تصدر صوت جهنم، كان يقلنا، أمي وأنا، من مقهى عادي إلى آخر هابط المستوى، ومن الشاطئ إلى الكازينو، ومن متجر إلى كراج. على متن طاولة كانت أمي تدلي رجليها كقطبي حديد، والشعر يتدلى على ظهرها وتتفرج على الميكانيكي الذي يركّب أجزاء المحرك، يغير عجلة، يثبت المسامير. وكانت تتعلم أبجديات الميكانيك مع التفسيرات المبسطة من أخي.

كان في محطة لتوليد الكهرباء عندما قال لها إن الكهرباء ليست بالسحر، وإن السيد «اكتوه» ليس هو «اشنوك» الرجل الغريب الأطوار، عجوز «السيدات الخرافيات» (أنا أحكي بمفرداتها الحقيقية) ثم «ماذا كانت الكهرباء التي تعطي الضوء في المصابيح والصوت لجهاز الراديو». كان المهندس هناك واقفا أمامها، كان باستطاعتها أن تسأله اذا ما كان يكذب عليها: إنه هذا الرجل وأصحابه، بواسطة الآلات هم من يصنعون الكهرباء.

اصطحبها إلى استوديو الإذاعة الوطنية وقدم لها السيد اكتوه الحقيقي، المذيع. لم تصدقه، كانت على وشك أن تصفعه

لشدة غضبها: «السيد اكتوه، هذا «الشنوك» الأصلع وبأسنان البلاستيك، وجلد عش الغراب، ذو عيني امرأة؟».

- رويدا رويدا العش يفرخ العصافير، يرد عليها نجيب. لا يهم أمي، سنعد لك العش، ويوما ما سترين النور.

وهكذا رأيناها ترى النور. اكتشفت الحقيقة الخالصة، تطورها على طبيعتها، تنقي الحبوب، تفرز الحب عن «السمقالة»(*)، تنسف واحدة من هنا وأخرى من هناك وفق قدرتها على الاستيعاب، وتندد:

- لماذا وحده الدقيق أبيض اللون؟ لماذا لا تكون كذلك النخالة؟ إنها جيدة، النخالة، إنها تعطي طعما للخبز.

كنا نمنحها النقود مع طريقة الاستعمال. لا، يا أمي، ليس لكون حجم هذه الورقة النقدية أكبر من الأخرى يعني أنها ذات قيمة أعلى. إنه العكس. انظري! أنت تستطيعين القراءة الآن. انظري في طرف الورقة.

حقيبة يدها تحت الإبط، وهي التي كان أبي يجلب لها كل شيء إلى البيت: سكر، شاي، لحم، خضر، فاكهة، زيت، زبدة، عسل، مواد التنظيف...، دخلت برجليها إلى عالم الاستهلاك وأصبحت مستهلكة كبيرة. تشتري أي شيء. كل الأشياء التي لا تعرفها. كانت تقدم تقطيعة ثوب إلى البائع وتقول له ببرودة:

- أعطني المناسب لهذا.

- - ماذا يكون هذا؟

- أوه، هذا؟ يرد نجيب بسرعة. أعطاه لنا صديق في السوق.

(*) حبوب طفيلية «الزوان» أو «الثيلم».

إنها علبة اللحم المعلب، «لحم بقر».

- أنا لا آكل المعلبات... أعطه للكلاب.

- موافق بابا... سآكله.

كان لحم خنزير... أخي استدعى أحد أصدقائه، كان لديه دراجة هوائية بمقطورة. يأتي كل يوم للبيت في الساعة نفسها يجمع أغلب مشتريات البارحة، يذهب ليبيعها- أو مبادلتها بالسكر، والزيت وقنينات الليمونادة.

كانت أمي تكتشف الآخرين. هؤلاء الذين لم يكونوا لا من طينة طفولتها ولا من طينة أبي. وكان ذلك من الأحسن. ليس لأنها تقلد، كان لصفائها ما يجعلها تمر في حرب من دون أن تسمع ولو طلقة رصاص واحدة. تلك الأوكار وهؤلاء البلطجية، حياتهم العنيفة، كل ذلك ساعدها في الخروج من قوقعتها.

كانت تكتشفنا، نحن أولادها. نعيش وحدنا، خارج عالم أبينا، وخارجها. عندما لاحظت أننا نعيش حياتنا غير مرتبطين بها، جنينيا، ولم نعد منذ مدة طويلة أطفالا متعلقين بتلابيب تنورتها، هذا ما فعلت، ضبطت عينيها كأنها عدستا المنظار. وشاهدتنا. شاهدتْ شعيرات نبتت على ذقني، وأن نجيب أصبح أكبر من زوجها. وهكذا أصبحت في هذا اليوم، لم تعد هناك قوقعة، ولم تعد هناك حراشف. بدأت ترى نفسها هي كائنة، كلها مجردة في عالم مجرد. ثم انفجرت بالبكاء.

- لقد هرمت، هرمت!

- لكن لا، أمي، قلت لها. أنت مازلت أصغر منا.

- الآن، وأخيرا ها أنتِ رأيتِ النور، يرد نجيب. هيا، تعال، أيها المهرج الصغير! هيا نخرج من هنا، هي تريد الآن أن تبكي، ستهدأ بعد البكاء.

خرجنا وجلسنا على العتبة. كنا نتأمل، ننفث سيجارة بعد أخرى، ومن وراء الباب كانت تصل إلينا زفرات نحيبها وتنهيداتها.

10

- لا، لا أريد أن أقول له. لن يفهمني.

كنا جالسين في أعلى الحافة، تحت ظل شجرة الصنوبر. وكان البحر يدفع في الأفق الأمواج المتعاقبة. زوجان من طيور النورس يحومان في السماء. في الأسفل، على الشاطئ، حصان أبيض يركض بكل حرية، يشرب أهداب الرغوة، وينخر. إنه حصاني. أهداه لي أبي كجائزة. إنه من تلك الأحصنة المتوحشة. لمدة شهر، كنت أحاول التقرب منه، خطوة خطوة، إلى أن شمني. وفي اليوم الذي ربتُّ على ناصيته كان أجمل يوم في حياتي. كنت أسميه بلانكو.

- لا، تؤكد أمي، لن أقول له شيئا.

كانت هنا، جالسة، باسمة، وكان الحزن في عينيها، كانت آخر صورة لي من الماضي.

- سأحتفظ بها لي، لنا جميعا. يوما ما سيعلم.

- نعم، أمي... أنت تعرفين، سأرحل غدا.

لا تكلمني عن ذلك الآن. فيما بعد، فيما بعد.

أخذت يدها وقبلتها.

- سأرجع لرؤيتك في رأس السنة، في أعياد الفصح وفي العطل الكبيرة.

كانت لا ترد... كانت تنظر بعيدا، الريح تهز شعرها، وأحزانها.

- أمي، اعتني ببلانكو... إني أهديه لك.

- نعم، نعم.

- نجيب سيبقى معك، سيهتم بك. لقد غادر الدراسة، ولا يمكنه أن يصاحبني إلى فرنسا.

- كم سنة ستدوم دراستك في الطب؟

- لا أعلم. خمس سنوات، ست سنوات. ربما أكثر. لكني سأعود كل ثلاثة أشهر. وكذلك، سأكتب لك كل يوم. وأنت ستجيبين كل يوم، ما رأيك؟

- نعم، نعم.

أخذت بعض العشب ومضغته. كانت تفكر في المستقبل تترقب الآتي.

- ستكون حرا هناك، قالت بصوت منخفض. لكنها مؤلمة أحيانا، الوحدة.

- كيف ذلك؟

- الحرية لا تحل مشكلة الوحدة. سترى، أريد أن أقول لك: أتساءل هل أحسنتما فعلا، أنت ونجيب عندما فتحتما لي باب سجني.

- لم أفهم، أمي.

- بالطبع نعم! فكر. هذا السجن، أنا مضطرة لدخوله في المساء. كما في السابق... كما في السابق.

- أمي، أنت تحبينه، زوجك؟ قولي، هل تحبينه؟

شدت على كتفي، رجّتني، بتجهم، الوجه متحسر والصوت حزين:

- مــاذا يعنــي هذا، حب؟ ماذا يعني ذلــك؟ عندما دخلت إلى ذلـك البيت كنـت طفلة. أمام رجـل أخاف منه. وحـدي برفقته، هل فهمت؟ ثم بعد ذلك مع مرور السـنوات ألفت الوضع. الألفة إحسـاس. كنـت لا أطرح الأسـئلة، لم أكن أعرف مــن كنت. بينما الآن!

- أمـي، أمـي... اصمت، لا تبكي، أرجوك!

- كنت لا أعرف شيئا.

بكت قليلا، ثم مسـحت دموعها بحركة كبرياء، رفعت رأسـها، وابتسـمت في وجهي. واستني، وتوسلت إليّ بألا أفكر في الحنين إلى مسقط رأسي، وبالأخص الحنين تجاهها.

- أنا كبيرة الآن.

ومــا دام هنـاك طيـف في الأفـق، كانت تحكي لــي الحكايات المسـلية حتى لا أفكر... على الشـاطئ، كان حصاني يركض على ضفة الماء. جاء الليل بسواده العميق فوقنا جميعا، وكانت نهاية للماضي، الماضي الشخصي.

الجزء الثاني

كيف أصبحت
1

إنـه نجيـب.. أخوك بالأمـس، واليوم وغدا.. هكـذا صغيري.. لا يمكن له أن يسـتغني عني.. الأب نفسـه، الأم نفسها، دم واحد، أسـرة واحدة، والعائلة نفسها. جميعا، سنسافر سفر الحياة، إلى أقصى حد، إلى نفاد آخر قطرة من البنـزين.

قل، أنت في باريس؟ كالعصفور الذي سـقط من العش؟ سـتهب الريح، وتُكبّر لك الجناحين. أتمنى أن تهب من الشمال نحو الجنوب وتدفعـك فـي اتجاه البحـر! قل لي: الناس فـي باريس، هل صحيح ينتعلـون أحذيـة من الخشـب؟ أنت لـم تأخذ معـك إلا زوجين من النعال. كنت ترجمانا لها: أنا بالتأكيد، الأم الوحيدة التي تملك في الدنيا. إنها هنا ورائي، تقرأ على كتفي. إنها تطرح سؤالا: هل تريد أن أرسل إليك عشرة بابوجات؟ رد. إنه أمر عاجل من أجل رجليك.

والسـيارات، هل تسـير بالفحم الخشـبي؟ هل رأيـت الجنرال ديجـول؟ هـل صحيح أنه يبلغ طولي نفسـه مع قبعته؟ لقد أتى إلى الدار البيضاء مع تشيرشل وروزفلت. لقد أقام في فيلا بأنفا، عنـد أحد أصدقاء أبي. أمي ذهبت لتزوره. سـأحكي لك. اذهبي، أمي دعيني أكتب لأخي، اذهبي لتستريحي!

طيب. سأبدأ من البداية. هكذا أنت ذهبت، وهي تكاسلت. رفضت الخروج، على الرغم من أن الأجواء كانت رائعة، برغم سيرك عمّار الذي قدم عروضا لمدة ثلاثة أسابيع. رفضت أن تقوم بأشغال البيت، ورفضت أن تتكلم. أحيانا كانت تسمع الراديو، تعد بأطراف أصابعها. عندما تصل إلى عشرة، كانت تمسح يديها على ثوبها. تعد من جديد على أصابعها. والعجين لم يكن قد اختمر.

في صباح ما، كانت هناك، في غرفتي، حقيبة اليد مُعلقة على كتفها. أخذت ساعتها اليدوية اليابانية الصنع التي لم تكن تفارقها أبدا: حيث كانت من الأعلى ساعة، وفي الأسفل بوصلة.

- انهض! الاتجاه: جنوب - جنوب - شرق! إلى السوق! انهض، يا كسول!

في السوق، اشترت أشرطة للقياس، أمتارا من الثوب مختلفة الألوان. قاموسا قديما، كبيرا وسميكا. خريطة الكرة الأرضية كتلك التي لا تفارق العالِم في ترحاله. لفة من الورق، بأنف بقال تشم الكزبرة والكمون. ومع ذلك كان أبيض ناصعا، في بعض أطرافه. لم تعط أي تفسير. التعليمات فقط:

- ضع مفتاح التشغيل.. شغل المحرك.. الاتجاه: شمال، شمال، شرق!

عندما عدنا إلى المنزل، كانت عيناها براقتين، الجلد وردي، الصوت حاد:

- ضع ذلك هنا.. هل تقدر أن تفتح هذه الخريطة من دون تمزيقها؟ وتبري قلم الرصاص من دون أن تفقد نصفه؟ هذا كل ما أطلبه منك.

إلى الجميع! تكلمت عبر الهاتف إلى مكناس، فاس، مراكش، الرباط، طنجة. ثم إلى مصلحة الجريدة الناطقة. كنت هناك، الأذنان واقفتان كأذني أرنب الغابة في الصباح الباكر، حيث يكون الندى لايزال صافيا وليس هناك أي كلب في الأفق.

كنت أنصت إلى ما تقول بسرعة مضخة تسحب وتضخ. كانت تتبع منطقها باستقامة خطوط سكة الحديد. لكن خطوط سكة الحديد تنحني أحيانا وتتفرع. نعم، وكل واحدة من مختلف مخاطباتها كانت لها نظرة خاصة، وإحساس خاص في تحليل الحرب العالمية.

- السيروكو تيار هوائي حار، يا عزيزتي. كالحرب... ألم تلاحظي أنه يهب لمدة ثلاثة أيام، أو ستة أو تسعة أيام؟ هذا يعني أن هذه الحرب ستدوم ست سنوات.. أو تسعا.

- غير معقول، إنه كثير، صرخت أمي. إنه أكثر من اللازم. يجب أن نعمل شيئا. على كل حال، فكبار القادة وصلوا إلى الدار البيضاء، ديجول على رأسهم. أنا أنوي الذهاب لرؤيته. هذا لا يمكن أن يستمر. قولي لي ابنتي: أين توجد بنغازي؟ أها، في ليبيا؟ وطرابلس؟ تأكدي، هيا ! أنت تسكنين في الشمال، عليك أن تكوني على علم .. والإيطاليون؟ مع من؟ انتظري، انتظري دقيقة.

التفتت إليّ ولوحت بسماعة التليفون بيدها:

- افتح لفافة الورق واكتب! اكتب، يا ولدي!

كنت أكتب مُرخيا أذنيّ. الأسماء، التواريخ، خطط المواقع والمواقع المضادة. كان عليها أن تعرف أولا الفرق بين الأصدقاء

والأعداء. من يحارب، مع من، وضد من. كان شيئا سهلا، جد سهل، أن تعطي الصفة الإنسانية لكل محارب، كان أول شيء يتعين علينا عمله. الأشياء والأشخاص المُسمّون بأسمائهم إذا لم يفقدوا عدوانيتهم سيفقدون غموضهم. ومن ثم سيفهمون لماذا يتحاربون منذ مدة طويلة. ماذا ربحوا من الحرب، زاد عدد الجرحى والقتل، ثم الندم. هذا ما كانوا ينتظرون من فوهات بنادقهم. أليس في وسعهم أن يحصلوا على مبتغاهم دون حرب، باعتبار صفتهم الإنسانية؟ أنا مقتنعة، بالطبع نعم، في حالة إذا ما اجتمعوا حول براد شاي منعنع واللحم المشوي على نار خشب الأرز الأخضر الغصن، سيجدون لا محالة صيغة للتفاهم. من يطبخ طعاما شهيا سيجد أرضية للتوافق، أليس كذلك؟

- ماذا تقولين يا ابنة عمي؟ أجيبي بهدوء.. نجيب سجل أسماء الرؤساء: رومل، طوجو، جوان، كلارك، ديجول.. لا، لا، ديجول، سأراه بنفسي غدا صباحا.

باختصار، أين كان المعسكر، ليس المعسكر المنتصر، بل معسكر السلام، السلام من أجل الإنسانية؟ لقد أشعلوا فتيل الحرب دون الرجوع إلى القاعدة. دون الاتصال بها، هي. وهي كانت كثيرة. قلب من حجر وروح جبل! الآن تم إقرار حشد معسكر السلام المشترك بكامل ثقل ضميره الواضح، مع إضافة انخراط الأصدقاء الذين كانوا البارحة أنصارا.

كانوا كلهم، عبر الهاتف، يضعون البيانات، يُقيّمون الخسارة، يحاولون ترميم الفجوات المفتوحة في خاصرة الإنسانية، من

حيث تتدفق الدماء. دماؤهم الشخصية. من منتيكاسينو إلى كاريات، من نورمندي إلى موروتاي.

- ابحث في الخريطة، وجهت لي الأمر بكل حزم. موروتاي ستكون في المحيط الهادئ، بين اليابان والفلبين. انتهيت؟ هل وجدتها؟ هيا اكتب: «موروتاي احتلت من طرف فيالق الجنرال ماك ارتير»... سطر، احسب عدد انتصارات الحلفاء وسجلها على الخريطة: علامة «+» حمراء بالنسبة إلى الحلفاء، وعلامة «×» بالأسود بالنسبة إلى قوات المحور.

- لم أكتب في حياتي قدر ما سجلت. أشياء لم أكن أفهمها، مثلما كنت في الثانوية. لا يمكنني أن أضع قلمي تحت ذراعي وأن أخرج من الباب. كانت أستاذة جادة، لم تكن تتحمل سماع صوت ذبابة. وكانت تعرف ماذا تقول. كانت مصادر أخبارها موثوقا بها، شاملة الآذان المنصتة لمختلف الإذاعات: طوكيو، موسكو، برلين، لندن، القاهرة.

من أجل مواجهة تلك البلاغات المتناقضة حيث الدعايات كانت توزع بسخاء ضربات الخصم، وكانت لا تحصل إلا على مزيد من الملاطفات، من أجل الحصول على حدث أو مجموعة من الأحداث الحقيقية الواضحة كوضوح حذائي قياس 46، مسألة المراسل، السريع، الناجع والمحايد - المحايد! - كانت غير مطروحة. كان موجودا منذ البداية: أمي.

- نجيب، سجل: 44 فرقة مدرعة على الجبهة في الشرق. انظر إلى الخريطة، لا تترك شيئا للمصادفة. افتح القاموس، إنه ناصح جيد.

كانت تهاتف حتى المساء. من دون انقطاع. بكل مثابرة ورصانة. الهاتف موجود؟ هل يعمل؟ ماذا إذن؟

مصلحة الجريدة الناطقة التي خاطبتها هاتفيا من أجل تأكيد الأخبار وجدت صعوبة في الاتصال بها. وكذلك من أجل إقناعها. لا أحد من الصحافيين يعرف أمي، هل كانت صحافية بدورها؟ بأي حق تتكلمين سيدتي؟ من طرف من؟ ماذا تريدين بالضبط؟ كيف؟ من أجل مزيد من المعلومات توجهي إلى جريدتك المعتادة... ثم «كليك»، يقطع الصحافي الخط.

من دون انهزام، من دون أن تقلق، تُهدّئ مراسليها وخنازير المكاتب، وتحرك بانشراح قرص الهاتف وترفع السماعة بسرعة.

- الو! بابيت؟ هل هي أنت؟.. قولي إذن، جميلتي، اطلبي لي المدير العام للإذاعة.. لا أعرف، أنا. ربما يكون لديك رقمه الشخصي. اقرعي الجرس حتى يجيب.. لا يهمني: جريه من السرير.. إنه أمر مستعجل.

لم أدرِ من يرد على مكالمتها! المدير شخصيا أو ماسح حذائه، هذا لا يهم. كان هناك رجل وهي تكلمه. كأنه أمامها بلحمه وعظمه، جالس أمامها وأذناه متدليتان. ماذا تحكي إذاعته؟ لأي مصلحة كانت؟ من أي اتجاه سمعتها يا أخي؟ هل تظن أنه لازال هناك من النساء البسيطات من تظن أن (TSF) (*) اللاسلكي هي صناديق سحرية؟ سحرية!.. ماذا تعني لك كلمة صحافيين؟ فوق أي مستوى هم؟ من الكل أو من الصفر؟ آه! لكن لا، أنا لا أحكم على النوايا، إن ذلك سهل جدا. أريد الحقائق والأعمال.

(*) إرسال لاسلكي- Transmission Sans Fil.

هـذا النزاع بالطبع يخصنـا نحن جميعا، اعتـرف. عندما يعود السـلام، كيـف سـيصير حالنا؟ هذا هو السـؤال. وأي سـلام؟ لم نصـل بعـد إلى هذا الحد؟ ماذا تقول، ماذا تقول! نحن بداخلها، ألا ترى؟ كنا في حالة السلم منذ أربعة أو خمسة أعوام... اسمع، أخـي، أريـد أن أقول لـك ما يجب القيـام به: لديـك إذاعة؟ أنت المديـر؟ هل تعرف تشـغيلها؟ عندك الرجال تحـت إمرتك؟ إذن، كل شـيء سـهل. هل تريدني أن آتي لمسـاعدتك؟ نعم، نعم، أفهم. طيب، أنا أملي، أسجل! لا أحد من بيننا يقدر أن يتحمل العيش طويـلا علـى الأكاذيب. هـذا هو المبـدأ الأول. المبـدأ الثاني: لقد طلبـوا منا الشـيء الكثيـر، الكثير. وأعرف جيشـا مـن المدنيين والمحايديـن مثلـي: يجـب علـى المتحاربـين أن يعرفـوا أنه ليس لدينا ما نعطيه لهم، لا ماديا ولا معنويا، ولو صدأ مسمار قديم أو جلد أضراسنا.. المبدأ الثالث.

كان يومـا حافـلا بالحركة. كان يوم سـبت، أتذكـر ذلك جيدا، كنت أضعت مشـاهدة مباراة الملاكمة للبطل مارسل سردان. وكان المساء للدراسة. للتخمينات والتقطيع. فتحت لفة الورق بمقدار ما تُملي أمي، أسـجل الأسماء، الأرقام والمقاييس. كان يغطي في تلـك اللحظة كل الدهليز. هتلـر وجنرالاته يهيئون آخر دور من البوكـر فـي مطبخهم، بين جرة الزيت وخزانـة التوابل. إيزنهاور والقيـادة العامـة كانـوا على بعد أربعة أو خمسـة أمتـار من هنا، قـرب بـاب المدخـل. الفيالق الحمـراء التابعة للجنـرال جوكوف تحيط بقفص الدرج. هكذا كانت الحالة، هذا اليوم، عند الساعة الحاديـة عشـرة وعشـر دقائـق ليلا، عندمـا قـررت أن تنتقل إلى

الهجوم وتُقحم تينتها الجافة في سبحة التين المجفف.

كانت مسلحة بمقص، جلجلته لوقت طويل - ربما من أجل ترويضه، أو ربما من أجل تحذير المتحاربين - حافية القدمين، مزمومة الشفتين، النظر حاد، والنفس متسارع، بكل خفة وبخطوات ثلاث: ها هي في ستالنغراد، التي قطعتها، مع جزء من تركيا المحايدة. ثم قفزت فوق مصر، والتي لم تترك منها إلا سيناء. تظهر لمن يتأمل في حركاتها اللاشعورية كالنملة في ذهابها وإيابها، لكن كان لديها منطقها الداخلي، كانت تقطع القارات والمحيطات، ثم ترجع الخطوات، تتعرج، تدور، وتنطلق ككرة المدفع. وعند كل توقف، كانت تأخذ قطعة من الأرض أو من البحر أو الاثنين في الوقت نفسه، كان المقص يصدر جلجلته كمقص البستاني. وكل جزء تقصه من الكرة الأرضية، كانت، تلفه بكفها، تكوره وترسله إلى صندوق القمامة. وعندما لا تجد ما تقطع، تضع المقص في حزامها وتجلس. تتأمل. بالقرب من قطعة من الورق، من دون شكل، صغيرة جدا.

كثيرا ما اعتبرته، كأنه مرآة، كثيرا ما بحثت فيه من دون جدوى عن صورتها.

- القطب الجنوبي، يا نجيب. هذا كل ما تركوه. وزد على ذلك، أنا غير متأكدة من أنه غير مصاب بدوره بسرطان الحرب. يمكن أن تشعل سيجارة يا ابني، أسمح لك بذلك. أحب رائحة التبغ، إنها رائحة الرجال، ستساعدني على التفكير.

أشعلت سيجارا كان أصيب بالاخضرار في أجزائه، وكان ذا رائحة فتيلة الديناميت.

- لا جزيرة، ولا أي ملاذ يمكن لملايين البشر مثلي العيش فيه بسلام.

نجيب، قل لي هل القطب الجنوبي آهل؟

- نعم، بالبطاريق. أظن.

- حسنا، طيب، ضم يديك وادعُ معي يا ابني. من أجل البطاريق.

ضممت يديّ، أغمضت عينيّ وكرست دقيقة من الصمت العميق إلى تلك الطيور الجليدية غير القادرة على حمل البنادق. كان سيجاري ينشر دخانا لاذعا وجبهتي تتجعد.

- آمين! لخصت أمي. اذهب الآن لتنام. غدا، سيكون يوما حافلا، جدا.

لم تنم. كل الليل، شخير آلة الخياطة يهز الأحياء والأموات. إلى صياح الديك، كانت لاتزال هناك، في غرفتها تحمل بين أطراف ذراعيها راية كبيرة جدا، فيها من الألوان ما يشبه لعبة «نط الخرفان» (*).

- كل الديموقراطيات ها هي هنا، صاحت مبتهجة. بعض الأمم ليس لها علم، بحجة أنها مستعمرة أو تحت الحماية. العلم الجميل ها هو! ها هو صنعته، إنه حقهم. كل بلد ديموقراطي له علمه، وبمقادير متساوية. قامت بخياطة الواحد بعد الآخر، كل الأعلام مجتمعة في علم واحد. انهض، يا كسول! اذهب للبحث عن صنارتك.أريد قضيبا. هيا انهضوا، أيها الأحياء!

(*) نط الخرفان، ألعاب جماعية يقفز الواحد واضعا يديه على ظهر الآخر المنحني .saute- mouton

2

الرايـة فـوق الرأس - أنا الذي كنـت أرفعها، أمي كانت مكلفة بحمـل عـذق من البلح - وصلنا إلى أنفـا، حي القيلات. المحيط الأخضـر كان بالقـرب، وعلـى الشـاطئ ترتطم الأمـواج العاتية تباعا. ومن ورائنا جحافل بشرية كانت تردد نشيد الأمل:

كيف الحال، يا ولدي؟

الكثير من الوقت فات،

العالم عبارة عن أرجوحة،

يصعد وينزل

وأنت تصعد وتنزل،

دون أن تعرف السبب

كيف الحال، يا ولدي؟.

تمـت تعبئـة الجميـع عبـر الهاتـف، صديقـات أمي كـن هنا (وصديقاتهـن، أبنـاء عمومتهن إلـى الدرجـة 27، جاراتهن...). في الصفـوف الأولى من التجمع، بلباس الحفلات.. الشـعارات، الطبـول، الدفـوف و.. أصدقائـي كانـوا موجودين فـي كل مكان، يؤمّنـون النظـام، يوقفـون السـير، يفسـحون الطريـق بإطـلاق صفاراتهم. المارة يمرون، لا أدري إلى أين يتجهون. عندما سبقونا،

تذكروا أنهم لا يوجد لديهم ما يفعلون، فتبعونا محتذين بنا.

- شيء رائع ! صاحت أمي.. الأربعة الكبار معنا! كانوا يعرفون أني قادمة. أنظر: إنهم أسرعوا في إرسال الحراس الشخصيين من أجل حمايتنا.

لعمري، إنه صحيح. أربعة من العساكر من حولنا، أنا وأمي.. بزيهم العسكري. أحد الأقوياء من فرقة لوكليرك، واحد إنجليزي بقبعة مونتكومري، وواحد من البوليس العسكري بسروال قصير وقبعة بيضاء وحزام أبيض، روسي من رجال الجبال، بسحنة شاحبة، والذي يردد: نييت،! نييت! كان جافلا. ضربت ضلوعه بمرفقي. «ما بك؛ أنت؟»، نظر إليّ بطرف عينه ورد بصوت منخفض: «لماذا؟ هل أغالي؟ دا دا!»، كان لطيفا لكنه صفر في الفكاهة العسكرية. أقرانه «الغربيون» كانوا رائعين. مثل زملائي في العصابة، هذا ما كنت أريد قوله له!

الممر أمام الفيلا، لم يتحرك، كأنه صخرة تمشي أمي فوقها.

- ديجول هنا؟

لم يرد.

كان جبلي من الأطلس المتوسط، جاف، غليظ وأسمر كالعصا المحروقة، من نوع مصلحة، مصلحة الأصدقاء فيما بعد. تراجعت أمي خطوة، وأطلقت نظراتها من تحت إلى فوق، بعين مسدودة، والأخرى مفتوحة. قامت بالتحية العسكرية. وأعطت أمرا:

- استعدوا.. سلاح!

قدم لها التحية، والجمهور يردد نشيد المارشال:

مارشال، ها نحن،

كلنا وراءك، كلنا وراءك!

الجيوب مثقوبة، الأرجل حفاة،

البطن فارغ، والأشياء كذلك..

كلنا وراءك! لا تدفعوا!

قالت أمي للعسكري:

همم!.. ليس سيئا.

كأنها غيرت عينيها التي كانت نصف مغلقة، أصبحت واسعة وثابتة، الأخرى أغلقت بالكامل. جفونها كانت بنفسجية، عكس الضوء، تخال أنها تحمل نظارة ملونة لعين واحدة.

وقالت:

- راحة!

والعسكري يأخذ الوضعية بجانب البندقية. لكن ليس طويلا وسرعان ما تصيح:

- استقامة!

ووقف مستقيما، هو، عيناه، سلاحه، لحيته، زغب أنفه.

- راحة!

ويضع بندقيته على ذراعه وطلب من أمي:

- ألم تنتهي بعد؟

وبهذا انتهى العرض. انفجر الجميع بالضحك دفعة واحدة. وكذلك الجمهور. الضحك انتقل من صف إلى آخر حتى وصل إلى أمواج البحر. «الروسي»، استرجع طبعه العدواني. أعطيته ضربة قوية للكتف وانتهى بأن يضحك كالجميع.

الجندي: طيب. ماذا تريدين خالتي؟

أمي: ديجول هنا؟

الجندي: من يكون هذا؟

أمي: الجنرال ديجول.

الجندي: الكثير من الجنرالات هنا. هل تعلمين!

أمي (بصوت عذب): شارل ديجول. الرئيس.

الجندي: الكثير من الرؤساء هنا. هل تعلمين! كلهم رؤساء، إلا أنا.

أمي: الجنرال شارل ديجول، رئيس القوات الحرة، رئيس فرنسا.

الجندي: وكيف لي أن أعرف. لم أكن يوما في فرنسا.

(تدافع في الجمهور).

أمي: (تتغير بنبرة مفاجئة) الجنرال لديه نجمتان؟.. طويل، طويل جدا؟

أنا. ذو المترين، لكنه نحيل، هاه؟ طويل مثلي تقريبا، عندما يضع طربوشه؟

الجندي (يبتسم من أذن إلى أخرى). آه! توجول؟ الجنرال توجول. لماذا لم تقلها لي قبل قليل؟ نعم إنه هنا، توجول.

(الجمهور): «ا- ا- ا اه»!

أمي. هل تعرفه؟

الجندي (يهز بندقيته) إذا كنت أعرفه؟ هو ذا، هذا الصباح جاء، كان واقفا أمامي، هنا في المكان الذي تقفين فيه الآن، يا خالتي. وقال لي: «عسكري..» وأجبته: «نعم، جنرال».. «يا جندي،

قالها لي، مع الشعوب الشجاعة لأراضي ما وراء البحار الفرنسية سنسترجع فرنسا. أنا أعتمد عليكم، يا جندي الإمبراطورية. وأجبت: «بالسمع والطاعة، أيها القائد، اعتمد عليّ!» أنا رفيق، أقول لك.

أمي: طيب، ضع بندقيتك على كتفك وقل لرفيقك إني هنا.

الجندي:(لم يعد يبتسم). مَن، توجول؟

أمي. نعم. دوجول. قل له إني في الانتظار.

الجندي: (يسترجع طبع مصلحة، ولا أصدقاء بتاتا). إنه ليس هنا.

أنا: قولي، «امممي»، هل تريدين أن أذهب للبحث عنه؟ ما أسهل ذلك.

أمي: أنت، قف ورائي. لا تتحرك من دون أمري. (تخاطب العسكري). اذهب، يا جندي الإمبراطورية، أطع الشعب وأطعني أنا.

الجندي: (يهز رأسه). لا، سيدتي، أنت لست من الجيش. أنا أطيع رقيبي. الرقيب قال: «أنت يا فصيل للحراسة هنا. أنت لا تتحرك. أنت لا تُدخل أحدا. فهمت، أحمد؟»، وأجبته: «أنا فهمت «ماسرجان...» اسمي ليس أحمد»

أمي: اسمع يا ولدي. عندي اقتراح أريد تقديمه للجنرال ديجول. حيوي. مستعجل. اذهب للبحث عنه. الشعب أولا. جئنا بالمئات، افتح عينك يا ولدي، انظر حولك.

الجندي: (يشرع عيناه)، أنظر، يا أمي الصغيرة. أرى كل شيء. وماذا بعد؟

أمــي: أحضرنــا لــه معنا علما مــن أجل التعبير بأن شــعوبنا هــي كذلــك موجــودة علــى الأرض، تتــوق بدورهــا إلــى الحريــة والديمقراطيــة. يجــب أن يعرف ذلك وأن يتعــرف علينا. إذا كان يريد أن يتحدث عن السلام مستقبلا، سيكون الكلام معنا، وليس مــع من قرعــوا طبول الحرب الشــنيعة. كعربون صداقة وحســن نية، أريد أن أقدم له هذا العذق من البلح. هل فهمت، يا جندي؟

الجنــدي: انتظــري، انتظــري، أمــي الصغيرة. أنــت تتكلمين بسرعة. أنت تقولين البلح؟ بلح زاكورة؟

أمي:لا. من كلميم.

الجندي(منشرح): هو الذي أفضل، أنا أعطيك كلمة الشرف. (يــأكل حبــة بلــح ويلفــظ النــواة). ليس بســيئ، غير ســيء! هل يمكنني أن آخذ أخرى؟

الروسي: ألا يعطوك شيئا تأكله، في سريتك الرأسمالية؟ (ضحك)

الجنــدي: اســمعي خالتي. ســأحاول ترتيب الأمــور من أجل إرضائــك. (يتــذوق بلحة أخرى). في هذه الســاعة الآن، الرئيس الكبير توجــول يتحاور مع الرئيس الإنجليزي. القصير الغليظ بطربوشه الغريب.

أمي: تشيرشل. نعم، أعرف.

الجنــدي. بالإنجليزية،هيه؟ يتكلــم الإنجليزية. على الرغم مــن أنه فرنســي. (يأخذ حفنة مــن البلح): ليس بالســيئ بتاتا. كنت أقول دائما إن بلح كلميم هو الأجود.

أمي: إنه يتحاور مع شيرشل، أفهم! بالإنجليزية، أفهم! وبعد؟

الجندي(يلفظ النوى) ثم يأتي دور الأمريكي. يتحدث معه بالأمريكية، وذلك يختلف كثيرا.

أمي: روزفلت، أعرف.

الجندي (مبهور): نعم، إنه هو. قولي هل تعرفين الكل؟

أمي: (إنها الحقيقة). تماما. عندي الهاتف.

الجندي (الفم مملوء) آه! الحقير! يبلع بلح ديجول قرب أنفي! سيكون متعبا خالتي. هل تفهمين؟ يتكلم هكذا، بالفرنسية مع أعوانه، ثم بالإنجليزية مع القصير الغليظ، ثم مع الأمريكي بالأمريكية! مع O.K ..هل تُقدّرين؟ أنا، لا يمكنني أن أفعل ذلك. لا يمكنه أن يستمر، هذا الرجل، لديه لسان واحد مع كل هذا.

أمي (اقتربت من حالة الانفجار بالبكاء): طيب، نحن جئنا من أجل لا شيء؟

الجندي. لم أقل هذا. ماذا تريدين منه، من توجول؟ احكي! سأبلغه.

احكي (وها هو مازال يبلع! لم يترك لي ولو حبة بلح: أنا أعرف هذا النوع من الجمال.)

أمي (تتلو): باسم الله، رب العالمين، قل له: البند 1: ديجول أنت مثلي أنا..

الجندي (يمسح طرف فمه الأيسر؛ ثم الأيمن؛ يرفع شفتيه كالصمامات ويرمي النوى، اثنين اثنين. لم يتوقف): غير ممكن ما تقولين هنا. أنا مجرد جندي درجة ثانية. إنه ليس مثلي، ألا تنظري!

أمي: مثلي، يا رأس التمساح!

الجندي: غير موافق. أنت امرأة. هذا ما أراه في هذه اللحظة.

أمي: إنه مثلي أنا، لأنه يريد انتصار الحرية والفخر لشعبه.

الجنـدي: النصر.. حسـن، سـأقولها لـه. (الجمهور يصمت شيئا فشيئا).

أمـي: إنـه يشـبهني لأنـه مـن الجيل القـديم. أعرفـه. قرأت خطاباته، بالأخص خطاب برازافيل. إنها تحمل القيم القديمة. على الأقل هذا ما قاله لي نجيب، الذي ترجم لي بعض خطاباته.

أنـا: نعم. عندنا قاموس كبير، اشـتريناه من السـوق. تعرقت بالدم والماء لأتوصل إلى فهمه.

أمـي: (للعسـكري) قل له هذا، (تقصد الجنـرال). قل له إني على ما أظن قادرة على فهم سياسته.

الجندي (يبلع ريقه): أنا لا أعمل بالسياسة.

أمي (بحزم): قل له.

العسـكري: لا تغضبـي، أمـي الصغيـرة. سـأعمل واجبـي العسكري.

أمـي (تتكلـم بهـدوء، ثم بسـرعة): قل له، إنـه لا يوجد على الأرض الرجال فقط. يوجد كذلك النسـاء ولم يتشاوروا معهن. نحـن موجـودات، أنت تـرى جيدا. يوجـد كذلك الأطفـال، إنهم موجـودون: مـن، قـل من يراهـم؟ والفقـراء، الضعفـاء، الحفاة، العـراة، وكل مـن ليـس لهـم صـوت؟ لـم نطلـب رأيهـم، قـط. الحيوانات، أسماك الأنهار والبحار، طيور السماء. أنت مثلا، هل طلبوا رأيك، وأنت بطولك هذا؟

العسكري (مذعورا): من؟ أنا؟ أنا؟

أمي (بقسوة): نعم، أنت، أنت.

الجمهور(يغني):

اصمت، يا ولدي، أنت، اذهب إلى الحرب!

هيا، من أجلي.

- وأنت، يا عقيدي؟ وأنت؟

- أنا، سأقودك،

سأتكفل بأرملتك.

الروسي: رد يا خادم الإمبريالية! وإلا سنخرب الثكنة. لم يعد هناك تعايش سلمي!

أنا (إلى الروسي): اصمت أنت، يا أحمق أنت سابق لزمانك.

الروسي: هذا غير صحيح؟

أمي (إلى الروسي): سد منقارك وكف عن النخير مثل القرد! لم نعد نتفاهم.

الجمهور:هـ.. دوء!.. هدوء!

(يعم الصمت).

أمي: كرر للجنرال ما قلت.

العسكري (الذي فهم كل شيء): سأقول له. الجنود، أزواجهم وأولادهم. سمعت، لقد سجلت.

أمي: البند 2 : إذا كانت بعض الدول قد أشعلت هذه المجزرة، يتعين أن يكون الحق للجميع في السلام وأن يشارك فيه. أنت، مثلا، يا عسكري.

العسكري (الكعب على الكعب): حاضر!

أمي: أطرح عليك سؤالا: من سيذهب إلى الحرب؟

العسكري (الجبهة مقطبة بفعل المجهود): الجيش.

أمي: من هذا. الجيش؟

العسكري (أصبحت جبهته أملس من الصابون): الجيش.

أمي: لكن من، في الجيش؟

العسكري: الرفاق، أنا، الفوج، الضباط. الجميع، ماذا؟

أمي (بصوت عذب): هو ذا!

العسكري (مزهوا بنفسه): هو ذا!

أمي (بخشونة): ومن سيذهب في الخطوط الأمامية؟ الضباط؟

العسكري (جبهته بمقياس ثلاثة سنتيمترات الآن): لا، الجنود، من لا يحمل رُتب.

أمي: هو ذا!

العسكري: ليس هو ذا! مع ذلك لم أفهم بعد.

أمي: لا يهم. هو سيفهم.

العسكري: من؟

أمي: ديجول.

العسكري (بابتسامة عريضة ساخرة أمام الكثير من عدم الفهم): إنه جنرال، إنه لن يذهب إلى الجبهة.

(ضجيج وتحركات)

أمي: سيفهم إذا ما ردّدت له ما قلت لك.

العسكري: لقد نسيت هل تعيدين ما قلته؟

أمي (انتزعت البندقية من العسكري ووجهتها إليه): ستقول

له ما قلته لك كلمة كلمة.

العسكري (مستصغرا في لحظة، شيء طبيعي، لم يعد يحمل البندقية، لم يعد له شيء، لم يعد شيئا بتاتا): احذري! احذري! إنها محشوة! لا تفعلي حماقة!

أمي: ردد من ورائي وردد للجنرال دوجول: البند 1 .. الحرية.

العسكري: البند 1 .. الحرية.

أمي: الحرية للجميع.

العسكري .. إلى الجميع. فهمت. العقوبة، ماذا؟

أمي: من دون تعليق! أنت في الخدمة وأنا القائد.

العسكري: نعم، أيها العريف. ردي لي سلاحي!

أمي (تحرث ظهره بفوهة البندقية): البند 2 .. ردد!

العسكري: البند 2 ردد. أرجعي لي سلاحي، كوني ظريفة!

أمي: من تحملوا أهوال هذه الحرب هم من يمرون أولا. سيبنون عالم الغد. ولا نريد محامين، ومن يفكر من أجلنا ومن يعمل لأجلنا. نريد عالما من الصفاء، والطيبة، والجمال والفرح. الرجال دائما يخطئون، ارتكبوا الأخطاء، بنوا على الدوام سلاما مع خراب الحرب. لم نعد نقبل هذا العالم. ردد!

العسكري: هل بإمكاني أكل البعض من حبات البلح قبل أن أنفذ؟

أمي: لا، ردد!

العسكري. رحمة بي، أمي الصغيرة! انظري ماذا تفعلين بي، خمس عشرة سنة من الخدمة، ثلاث مراتب، عسكري من الدرجة الثانية، وقريبا كابورال إن شاء الله. تأتي إلى هنا، مع

رفاقك، المغنين، الموسـيقيين. تجردينني من سلاحي، وتكلمينني بلهجة غليظة لا أعرفها، وبالأخص عبارة توجول- توجول! أنا لا أخالـط الضباط، أنا. أنت تقولين أشـياء أغلظ من ثمار الصبّار التـي يوجد الكثير منها قريبا مني. وكل هذا من أجل حفنة من البلـح. مـن كلميم، على الرغم من أني أحب بلح زاكورة ! (يبصق في الأرض). كيف لا يمكنني أن أصاب بالشقيقة؟

ماذا فعلت أمي؟ أرجعت له السلاح، وأمرته:

- راحة! راحة دائمة!

فـي تلك الأثناء، كانت الأمور تتجاوز العسـكري. لم أعد أراه علـى كل حـال، عندما حاولت البحث عنه وسـط الجمهور الذي تقدم إلى الأمام. رفعت أمي ذراعيها، وهيكل عذق البلح كقضيب عريـف ثان، وأنا برايتي العريضة: الجحافل البشـرية تتقدم في اتجـاه الفيلا. كانت الأصوات في البداية تتهافت، مملوءة بطيب الصبر، ما بين ألفين وثلاثة آلاف من الحناجر تردد بنود الدستور العالمي للشعوب غير المستقلة (PNEI).

- ... البنـد 3: حالـة الارتعـاش والخوف لم يعـد لها مجال. فـرخ الحمـام، عندمـا يربـي جناحيـه، لا يخـاف ولا يرتعد أمام أبويه، الحمام.. إذن، لماذا نحن؟

- البند 4: عندنا أطرافنا الأربعة وأسناننا الاثنتان والثلاثون، ليس لدينا ما نزيد لمن يُسيّرنا..

أنـا أعـرف الجمهـور، جمهـوري. كنـت دائمـا أعيـش بينهم. الجمهور المحتج، الذي يتوق للحياة. أعرف رفاقي، باستطاعتهم تسـيير واحتـواء اثنتـين أو ثلاث سـريات من البوليـس، ولكنهم

لا يستطيعون احتواء هذه المسيرة. لم أعد أعرف أمي. ولا صديقاتها، كانت أمي تشير إليهن بالتقدم إلى الأمام. هؤلاء النساء، وأمي معهن، أمي! كن يشكلن قوة قادرة على النصر في حلبة في شوطين، تصورت ذلك في هذا اليوم. لم يعدن راضيات بقبول المقابل بالكلمات. انتظرن طيلة حياتهن، مكتفيات بانتظار الأسلاف والأجداد، صبر عمره عدة قرون من شأنه أن يبخر المحيط الأطلسي، إذا لم يكن هذا هو قدرهن السلبي. كن جائعات وعطشى من أجل الحياة. بأنفسهن ومن أجلهن وليس للآخرين منذ اللحظة. ربما أني لست عارفا كما يعرف المهرج الصغير أخي الذي يأكل الجريدة أثناء الفطور، لكن هذا ما أحسست به ساعتها. لم تكن صاحيات لغاية الاستماع وأكل وشرب الكلمات.

كان الشباك الحديدي قد فتح على مصراعيه (علمت فيما بعد أن الروسي كان يصرخ)، وهؤلاء السيدات كأنهن من زمن آخر، وكنت أظنهن استسلمن مع مرور الوقت، يدخلن في صفوف متراصة إلى الحديقة، صامتات ومصممات كالمصارع في أول مبارزة. وفي تلك اللحظة فتحت نافذة الفيلا.

أطل رجل مقدام كان يضع على رأسه قبعة «كيبي». كان ينظر إلينا بنظرات تكن التقدير كأننا جزء من شخصه. وكانت أمي بدورها تقدره - كأنها - هي وهو الوحيدان من يوجد على جزيرة قاحلة. ثم يرفع ذراعيه إلى السماء، اليدان متشابكتان وتفاحة آدم تتزحزح على حنجرته. كل سكان حي أنفا يصفقون: بالنبرة نفسها، من قرب الروسي حتى أمواج البحر المنكسرة.

كنت أنظر إلى أمي. كانت الوحيدة التي لا تصفق.

- من يكون؟ سألتني.

- توجول، انظري! ألم تعرفيه؟ أجبتها.

- توجـول؟ ردت بتأمل. هـذا غريب. ظننت أني أرى أباك. إنه يشبهه بكل ملامحه.

- لكن هذا عنده قبعة «كيبي».

- نعم، واضح.

3

كانــت تحـتج في مواجهة مع أبي. كنت فــي غرفتي تلك الليلة، وكان لديّ أذنان كما للجميع. ثم إن الباب لم يكن موصدا بكامله.

كنت أحلل تكهنات مباراة الملاكمة - «جاك لا موتا» يرد بالتأكيد الضربات إلى غريمه، كان ذلك معروفا- ولحظتها سمعت الصوت يصعد إلى مرقدي، يحاصرني. مددت ذراعي وفتحت الباب على مصراعيــه. كان الجــو حارا. ثنيت الجريدة إلــى نصفين، ثم إلى أربعة، واستعملتها مروحة. كان الجو حارا بالفعل.

كان كصوت مغنية «الكنترالتو» (*) المحجبة. لم أعرف إلا فيما بعد- أنه يســمى كذلك، صوت مغنية «الكنترالتو» المحجبة. كنت ســمعت ذلك مــن قبل، في المناســبات المهمة. مرتــين أو ثلاثا في حياتــي وفي حياة الآخرين. مرتين أو ثلاثا وكنت لحظتها أُفضّل أن أكـون بعيـدا، بعيدا جدا. لصيد الأســماك، مثـلا، فوق قارب، وحدي، ما بين السماء والبحر. أصيد سمكة كبيرة، أرفعها، أريت علــى ظهرها، هيــا تعالي، صديقتي، تعالي، هيا! كان بإمكانها أن تتملــص، وبإمكانها أن تضــرب بذيلها قاع المركب، وأن تموت وهي تنظر إلى عينيّ، من دون أن تقول شيئا.

(*) نوع من الموسيقى الغربية بصوت أنثوي رنان.

أنا، قبل أن أعرف وأفهم العالم وسكانه، أن أعطي اسما لكل مخلوق، أو كل شيء، عندما هزني ذلك الصوت، تصورته هكذا: ثوب ناعم في حنجرة من حديد. من أجل هذا في ذلك المساء، عندما طلع فجأة وجاء يهز جلدي، طويت الجريدة ولم أعر الاهتمام بتلك المباراة في شيكاغو. كانت النتيجة محسومة. ستة ونصف مقابل واحد.

- أوه، لا ؟ يقول الصوت. أوه، لا! بتاتا. كنت ببساطة أريد أن أعرف. الدجاجة المشوية لا يمكنها أن ترجع إلى ما كانت عليه من قبل لتنقر، وترفرف بجناحيها وتفعل: كوت- كوت- كوت! إنها مطبوخة، مشوية. لا تنتظر إلا تقطيعها واكلها بأسنان جميلة.

بدأ أبي يجيبها:

ماذا تعمل هنا الدواجن؟ نحن في الصالون وليس في الفناء الخلفي، أظن. منذ فترة، أنت بدأت تتكلمين لغة غريبة، تصرفات غريبة. لم أعد أعرفك، لم أعد أفهمك. منذ سنوات، سنوات.. مضت.

لم أستطع متابعة البقية. وضعت أصبعي الصغير في أذني ودرتُهُ في اتجاه عقارب الساعة. لكن ليس هذا، لم تكن لديّ سدادة من الشمع. إنه أبي. لا يغضب أبدا. حتى عندما كان يركلني. أعرفه. كلما غضب، يصبح صوته هادئا، خفيفا، ملبدا. شيئا مثل صوت المطاط.

قفزت إلى أسفل، من سريري.. لم يفكر أحد في صنع الفراش من الصوف الخالص.. أكثر سماكة من الخروف الواقف.. كيف يمكن للإنسان أن ينام في ليلة من ليالي أغسطس كهذه؟ في هذه البلدة؟

لبست سروال بيجامتي، من أجل الحشمة ومن أجل التيار الهوائي. ذهبت لأستلقي في درج الطابق الأول. من الفسيفساء المصنوع يدويا، كان باردا، كالماء في البئر.

- أوه! لكن نعم، يستأنف صوت «الكنترالتو» المحجبة. بالطبع، بالطبع. أنت دائما تؤدي ما أطلب. من قدميّ إلى أعواد أسناني، مرورا بالمؤونة إلى ملاقط الغسيل. كل شيء. نعم كل شيء. لا، سيدي، لا : رغباتي لم تكن تستجاب. وكانت في الحسبان. كانت رغباتك. الآن، لا تفهم، باستطاعتي الآن أن أمر عبر سم الإبرة. إنه صعب، ستقول لا يمكن؟ ربما، لكني قادرة على فعل ذلك. أقدر أن أفعل كل شيء.

وساد سكون طويل. طويل كالحية التي تلتوي، لفة، لفة قبل الهجوم. تلويت بدوري، إلى أن وصلت إلى قفص الدرج. تلك الفسيفساء من الزليج كانت لعمري جد رائعة. لكنها كانت غير قابلة لتحمل جسدي ذي المائة كيلوغرام من اللحم الجاف. جلست على الدرجة الثانية، والدرجة الأولى كانت متكأ لذراعي. كالأريكة في الصفوف الأمامية. لا أرى أمامي الحلبة، لكني أسمع صوت الضربات.

والمطاط يتحول إلى صمغ عربي. ثم بدت في صوت أبي رنة هادئة جعلتني أصك أسناني.

- نساء جيلك لا يمكنهن قول أكثر ما قلت الآن. عندما تزوجتك كان عمرك ثلاث عشرة سنة. يتيمة منذ زمن. من دون عائلة. لم تكوني تعرفين البيضة، ولا كيفية كسرها، ولا طبخها، ومن يبيضها، الهرة، البقرة، الفيل. ربيتك، لم يكن لديك ماض،

جعلت منك امرأة محترمة، سهّلت لك الحياة. ثم حللت جميع مشاكلك. أنا أعرف كيف أتعارك. وأنتصر. لو كنت زوجة رجل حافي القدمين، يمكنني أن أفهم. اشرحي لي. لأنه بحق في روحي وضميري، لم أعد أفهم.

- هو ذا، ردت أمي. لدينا ابنان اثنان.

- نعم، ولدان. أعرف ذلك. وماذا بعد؟

- كانوا رضعا. كبروا، سنة بعد سنة. والآن أصبحت لهم أجنحة. هل تفهم؟

- لا شيء. لا شيء من لا شيء. في البداية كان فرخا مشويا. ثم مثلث دور السيرك، قصة الإبرة. الآن تتكلمين عن الأولاد بأجنحة على الظهر. تكلمي بوضوح. أنا أسمعك.

في تلك الأثناء كان الصوت الدافئ يكسر حنجرة الحديد. كان بودي أن أهرب وأذهب لأختبئ في فراشي. وبدلا من ذلك، كنت أدور مع الدرج وكان الصوت يرتفع حدة وعنفا. ثم لم يعد يسمع إلا الألم عندما وصلت إلى آخر درجة وجلست. كنت أتصبب عرقا، وسط الماء.

- إيه حسنا، يقول الصوت، أنا بدوري كبرت. ألم تنتبه إلى ذلك؟ عندما دخلت إلى الدار، لم تكن معي جميع أضراسي. عندي اثنان وثلاثون الآن، لقد عددتها، انظر! طولي زاد ووزني كذلك. لكن روحي، قل؟ روحي أنا؟

هذا ما قالت، يهدأ الصوت الجوهري كالمد البحري الآتي من الأعماق، بثقل سيدة مسنة، صبورة. وقالت:

- قل؟ روحي أين هي؟ من هي؟ ماذا تعمل؟ لماذا؟ هل لديّ

روح؟ لماذا؟ ماذا أصبحت روحي؟ هل كبرت، هي أيضا؟ لماذا؟ ماذا تشبه؟ تشبه فص الثوم الذي ندقه في المهراس، أو المكنسة التي نركنها وراء الباب؟ ولماذا؟ هل بمقدورها يوما ما أن تغني، وترقص، وتجعل هيكلي يطقطق رقصة «الكلاكيت»، وتضرب جلدي كجلد الطبل؟ إنها في الظل على الدوام، وتريد أن تبرد، أعرف ذلك. نعم، برد، وجوع، وعطش وفقر، حياة كل ما يوجد وراء هذا الباب من خشب الصنوبر المزين بالمسامير، والذي لا يوجد منه شيء بالنسبة إليّ، أبدا بأي شكل من الأشكال، ولا أعرف شيئا، إلا المؤونة التي تحضرها، والأوامر والتعليمات اليومية التي لا تتوانى في إعطائها، الأخلاق التي تدهنني بها، واللجام الذي به تقودني، تغلق السدادات التي تغلق عيني بها. مائة مرة نعم، كنت أتمنى أن أكون مثل هؤلاء الحفاة العراة الذين تخيفني أن أكون مثلهم. على الأقل كنت سأتعلم قسوة الأرض. أن أعرف قيمة كياني الذي أقلعه من التراب، أن أحس بدفء الشمس، والأمطار على رأسي العاري. كثير من الشعوب ترفع الرأس، تأخذ حريتها، إذن لماذا لا أكون أنا؟ ما الفرق بيني وبين أبنائي؟ لماذا كانت لديهم الفرصة لمعرفة من أين جاءوا، ومن هم، وأين يتوجهون؟ هل لأنني امرأة؟ لأنني زوجتك؟ على هذا الحساب، يتعين أن تتزوج بخيالك. نعم، سيدي نعم. ها أنا بسبعة وثلاثين عاما- وسأقول لك: لا أعرف شيئا. لا شيء عن الشعب الذي رأيت النور فيه، والأرض التي أطعمتني، لا شيء عن ثقافتي، عن أصلي، عن لغتي وعن ديني. آكل ليس إلا. أوه! هذا، نعم، آكل، أرعى في العشب، مخازن الحبوب مملوءة، النقود

لتدفق، ليس لديّ ما أقلق بشأنه. رفعت من صوتها مرة أخرى إلى حد تكسير حنجرتها، وتكسر معها المحيط على الصخر الذي يسمى زوجها.

- إذا كانت روحي هنا أمامك، تخرج بعصا سحرية في هذه الساعة، سأكون أول من يفاجأ، لن أعرفها بتاتا. أظن أنها ستكون في صورة طفل بليد برأس كبير. سأقول لها: «فكي أذنيك لأرى عينيك الجميلتين!» إن روحي ستنظر لي من دون أن تنطق بكلمة، من دون ابتسامة، ومن دون أن تفهمني.

ثم تصمت. وكان في وسعي سماع استرجاع أنفاسها، كانت تجمعها كسرة كسرة، وأسمع فورة الدم في عروقها، تهدأ شيئا فشيئا، وتهدأ العاصفة، وتهب الريح.

في أثناء تلك الفترة الطويلة، لم ينطق أبي بكلمة، لم يكح، لم يتنهد، لا شيء. الساعة الحائطية أعلنت الثالثة صباحا في مدينة مهجورة. ثلاث دقات على النحاس الصدئ. كان ذلك كأنه الماضي الهرم توفي في النهاية من أجلنا نحن هنا جميعا، في هذه الدار وهذه اللحظة: أبي، أمي، أنا، الأسرة، الدواليب، الزرابي والستائر، وكل الذكريات.

- هل هو، نجيب؟ يسأل الصخر بما بقي لديه من رغوة فوق رأسه. هل هو الذي علمك الثورة البلشفية؟

عمّ الصمت. أمي لا تعرف الكذب. ولا التهرب. بالنسبة إليها ضلع خروف أو القدر على النار يعني اللحم، من دون تمييز سياسي. لكني كنت ولدها، من لحمها، وكانت تريد حمايتي. من أجل ذلك أخذت كامل وقتها لتثبيت لسانها في فمها قبل أن

تجيب عن السؤال:

- في نظرك، نغرس الشجرة من جذورها أو من رأسها؟ هل نجيب هو من ولدني، أو العكس صحيح؟... هيه، ما رأيك؟... قبل الثورة، ربما كانت هناك توجد ثائرة. نجيب لم يعمل شيئا إلا تزويدي بالسلاح. يمكن أن نجر حمارا بحبل، لكن من الصعب دفعه.

- إن ذلك صحيح، ومضبوط. إنها كانت في الحلبة، تسخن كتفيها وتدور حول نفسها كالدرويش. المسكينة لم تكن لديها قفازات، كانت تجهل قوانين الملاكمة، لم تقم بالتدريب اللازم، ولم تعرف قط ماذا تعني كلمة الشوط. مساء الخير أمي الصغيرة. إن الجو خانق هنا، أليس كذلك؟ سلام، با.

وذهبت لأجلس بين أمي وبا. في انتظار الحكم الأخير. بكامل زغب قفاي. كانت هناك مائدة دائرية صغيرة منخفضة. فوقها صينية من الفضة المنقوشة: براد، كؤوس مذهبة، وخبز مُحلّى، حلويات باللوز، الحمد لله، وإناء مملوء بالزيتون الأسود.

- من يريد؟

لا أحد يرد.

- آه! حسن.. مع أنه زيتون مجعد، غاص بزيت الزيتون، هذا يعطي القوة. لا، صحيح؟... آه! حسن.

وأكلت كل الزيتون، اثنتين اثنتين. نجيب يمضغ ويلوك في انتظار الحكم الأخير، الله يعلم ماذا سآكل في العالم الآخر. مضغت بعناية، وكان لديّ الوقت الكافي. ثم، جمعت بعناية النوى في الإناء.

- حسن. ماذا نعمل الآن؟

- هل انتهيت؟ يقول لي أبي بهدوء- بكل هدوء، وبكثير من الرقة.

واقف، نحيل وقوي، يترك نظرة تسقط عليّ كأنها سلك الرصاص، كضوء مصباح الشارع- وعلى أمي كذلك، لكنها بقيت هناك مكانها، في زيارة لبيتها الخاص، بأفكارها المتداخلة والأذرع المتشابكة. وقبل أن أنهض بدوري، مسحت الأصابع على سروال بيجامتي. وكانت تروج هناك رائحة للزيت بيني وبين أبي. هذا جنون ما أشد رائحة الزيتون.

- نعم، أبي. انتهيت. لماذا؟

- اخرج!

- آه!حسن.

بعينيه وسبابته، بدأ يدفعني إلى الأمام.

- اخرج!

لم يرفع صوته، لم يرفع يده عليّ، لا شيء. كان وجهه مطبوعا بالطيبة والشرف، وبينما كنت أتجه نحو الدهليز وأنا أرجع القهقرى، كان يتبعني خطوة بخطوة، بهدوء. كان أبي، هكذا. لا يمكن أن يقلده- لا الشجر، ولا الأسود أو بنو آدم.

وصلنا أمام باب الدار. فتحها من دون أدنى ضجة، لا منه ولا من الباب. باحترام، شرع من ورائه الباب بعد أن أفسح لي مجالا للخروج، والرأس منحنٍ جانبا.

- اخرج!

- لـم تغضـب منّي، با؟.. لا؟ إذن نصافـح بعضنا البعض كما يفعل الكبار؟

بعـد نصـف ابتسـامة، مـد إليّ يـده اليمنـى. ككـف حيوان، ضغطـت عليهـا بحـرارة. كانت بطعم الاسـتقامة، وطعـم التبغ والصفعة. ضغطت ثم ضغطت، وسحبته نحوي وقلت:

- لو تخرج، أنت با؟ هيا لتشم هواء الليل، سينعشك، صدقني.

وأغلقـت مـن ورائه البـاب. بالمفتاح. صحيـح، صدقوني! كان الجو حارا جدا في الدار. بأدنى شـرارة سيشـتعل البيت بما فيه. وضعـت المفتـاح في سـروالي والذراعان مرفوعتـان في منأى عن الجسـم، ورجعـت إلـى الصالـون. ربما في هـذه اللحظـة «جاك لاموتا» كان يردف اللكمات؟ عجبا! سأعرف في الغد صباحا.

- الحلوى مازالت هناك؟ هل نجت؟

- وجـدت الجـواب في رأسـي، بالضبط ما بـين العينين التي خلقهما الله: الإناء المملوءة بالنوى.

- كيـف رميتِها أمي؟ بثلاثة، أربعة أو بالهجوم؟ بثلاثة، أربعة، أراهـن، كما علمتـك، من أجل خداع الحارس. وأنت في الأسـبوع الماضي كنت لا تعرفين شيئا في كرة القدم؟

- برافـو أمـي، إذا ما بقيت هكذا فلـن تبطئي في التحول إلى عمود أوسط.

- مـن دون أن تنبس كلمـة، رمتني بما كان بالقرب من يدها- أو رجلها، لم أتمكن من السـيطرة. واقفة، متوترة، مرتعشـة. كأن غضبتها ممغنطة وتجذب إليها كل الأشياء، كنت أتلقى، بالطبع، لكـن تلـك الضربـات كانت مسترسـلة بحـركات جنونيـة وكانت

تصيبنـي بما تصوبه بدقة! في الفترة بين الشـوطين، كنت رتبت مـا كان على المائدة. تقريبا أغلب قطـع الحلوى كنت أكلتها عند مـروري وتركت كأسـين أو ثلاث كؤوس تمـوت. كانت تلك الكؤوس قديمـة، من القـرن الماضي كان جدّي من تركهـا. لم أر مثلها من قبل. قلت:

- حسن، ماذا نفعل في هذه اللحظة؟ نرجع إلى ما كنا عليه، أو نتحاور بهدوء، محاورة الرجال؟

الأسـنان مصكوكة، مشـت مـن فوقي، صغيرة، ناعمة، هشـة. يمكنني أن أرفـع أي ذراع وأنهشـها، يمكنني رفعهـا على ظهري ووضعهـا بجانـب سـريري. لـكل شـيء حـدود، حتـى فـي مركز الشرطة، قلت:

ماذا؟ ماذا فعلت؟ يقال إنك غاضبة مني، لا أفهم.

مشت قاطعة الصالون، وتوقفت تقريبا بجانبي، حتى اقتربت منـي، إلـى درجة لمسـي، قلبت رأسـها من أجـل النظر إلـيّ مليا. وانحنيـت، تقريبا القرفصاء. كنت هكـذا بطول قامتها. نظر كل منا في عيني الآخر. لم تكن لديها ولا رمشة واحدة.

- ما بك شـاحبة أمي؟ اسـم الله عليك، سـتفقدين مزاجك المـرح. ماذا فعلت، في النهاية؟ كنـت هناك فوق، في غرفتي، أقرأ في جريدة قديمة، لما سـمعتك. كنت محتاجة إلى العون، وجئت إليك. لا شيء أبسط من هذا.

كنت اقتربت من الانفجار بالضحك ورفعها بذراعي، لما فتحت ثغرها. وما خرج منه، إنه الصوت. قبل الكلمات. الكلمات، صرخت بخمس أو سـت، ربما العشـرات، بالعبث، مخي لم يحتفظ منها

بـأي اثر، ولا صدى. صوت مغنية «الكنترالتو» المحجبة، سـمعته فـي الحال، أكثر سـرعة، أكثر حساسـية من أي كلمـة. كانت هنا، مرفوعة فوقي وضدي كريح «السيروكو»، تصيبني من كل اتجاه.

- لـم أكـن محتاجة إلى العـون، تابع الصوت. لا منك ولا من غيرك. أنا الآن واعية، مسـؤولة بالكامل عن حياتي. هل تسـمع؟ أنا من أحاول أن أتحرر من وصاية والدك، تأتي أنت لأطلب منك الحمايـة، أيهـا الأحمق الكبيـر. أنا أدري ما علـيّ فعله. وما هذا الذي تلبسـه. هل تريدني أن أضع الفلفل الأسـود في فمك. من العيب الظهور أمام الأم بلباس جلد الحيوان.

- لكن أمي، إنه ليس جلد حيوان. إنه زغبي.

- وقبل ذلك، ماذا تفعل في هذه الساعة من الليل؟ من رخص لك بالهبوط هنا؟ هل طلبت منك أن تأتي لتحافظ على الوضع أو تقشر البصل؟

- لا، أمي.

- إذن، اذهـب لفتـح البـاب، واطلـب السـماحة مـن والـدك، واصعد لتنام.

نهضـت، ذهبـت لأفتـح البـاب، وصرخت « آسـفة» فـي ظلمة الزنقـة والتحقـت بفراشـي الصوفـي. كـم سـتكون السـاعة في شـيكاغو؟ مهمـا تكـن النتيجة، ذلـك الكهل «جـاك لا موتا» لن يكون أشد اضطرابا من حالي السيئة التي أنا عليها الآن.

4

مــدة ثمانيــة أيــام، لم توجه لي أمــي أية كلمــة. وأبي كذلك. أدخل إلى الدار كأنها مطعم، وأنام كأنني في فندق، وأخرج كأنني أخرج من كنيسة، بناء واسع من الإسمنت المسلح، فيه يغني أحد برأس عارٍ من الصباح إلى المساء. أنا.

سياســة الانتظار بلا نهاية، هذه اســتعملت كبرنامج في عدة حكومات عربية. لكن لا أحد غنى. لا يمكن أن نرغم الحمار على الشرب إذا لم يكن عطشانا.

* * *

ثــلاث أو أربــع مــن شــجرات الصنوبــر، تقف على الحافة شــبه صلعــاء، رماديــة بكاملهــا، كأنهــا توجه إلينــا نظراتهــا وتتنهد مع هبوب نســيم المســاء. يحلق من فوق رأســي طائر النورس، يراقبني كأننــي ثعبان، ثم يذهب ليلحق بالشــمس في الأفــق. كانت تصرخ بصوت كأنه من المعدن. بلانكو، حصان المهرج الصغير، يركض على الشــاطئ. ينتفض فترة من الزمن شــعرة بشــعرة، موجات متتالية من المؤخرة إلى الخياشيم. وبما أن الحوافر في الزبد، كان ارتجافه يتحــاور مع أمواج المد. العمر، الوحــدة، الأخبار النادرة التي تصله من أخي أرجعته تقريبا إلى حالته الأصلية. إنه فيلسوف حقيقي.

- نحـن، بني آدم، تقول أمـي، لا يمكن أن نفعل مثله، الرجوع إلـى الوراء. نحن مسـجونون فـي التقدم والحضـارة الصناعية. لست حصانا، أنت؟

- لا، أمي. لست كذلك ولا حمارا وحشيا في المدينة.

- إذن توقف عن الحلم واحفر.

كنـت أحفـر. منـذ سـاعة. فـي ركام الحجارة وخيوط عشـب النجـم. وأحفر في قلبي كذلك. كانت لديّ أداة أمريكية، أخذتها من مزرعة أبي، من هناك، على مرمى حجر، وراء الحافة. عندما تطـوى تصبـح فأسـا. وعنـد فتحها تصبـح معولا. كانـت تصدر رائحـة زيـت التقنيـة، بخفتهـا كان بمقدورهـا أن تنفلـت إذا لم أشدها بيدي الاثنتين، كانت جد خفيفة.

كنـت أحفـر، بفأس ومعول وفـق التعليمات التـي تصدرها أمي. كانت جالسـة فوق صندوق، جامعة يديها والشعر يتطاير مع هبوب الريح، كانت تراقب كل شيء، كل حفنة من تراب، وأدنى حصاة. كانت لديها المقاييس، تلك المقاييس التي سجلتها في ذهنها، لأول وهلة.

- أحفر عميقا، شرقا، في اتجاه مكة.

- حسنا أمي.

بعد الرمل والتراب، حفرت في الطين. ثم، تحت، وجدت الماء. أول نجمة في المساء لاحت، أكبر من نجمة السماء.

- والماء، أمي، بماذا أضخه؟

- اخرج من القبر وتعال لتساعدني.

فَتَحَـت الصنـدوق الـذي كانـت جالسـة عليـه، مـدت لي الذكريات التي كان يحتوي عليها، شـيئا بعد شيء. كل قطعة

مـن الماضي، كانـت تأخذها بطرف ذراعيهـا وتتأمل فيها مليا على شمس الغروب، وعرفت حينها أن الأشياء تأخذ لون الدم حـين موتها. الفسـاتين القديمة التي صيرتها من دون شـكل منذ سـنوات، المرأة الحديدية المصقولة التي من خلالها كانت تبحـث بصعوبـة على صورتهـا، قواريـر العطر، إنـاء الخزف، الذي كانت تضع فيه أحمر الشفاه، من أزهار شقائق النعمان، والـذي مـازال راكدا عليهـا منذ صباها، حـدوة الحصان التي تحميها من العـين، دميتها من القماش، صدفات البحر التي كان يأتي بها أخي من الشـاطئ، الشباشـب، والأحذية، المشط العظمي، خواتمها، كل شـيء، نعم، كل شيء أصبح أحمر أمام العيـون الحمراء. ثـم، قبل أن تمده لي، كانت تقبل بشـفتيها كل قطعة.

- إلى اللقاء.. إلى اللقاء.

واقف فوق كومة التراب والطين، تركت شـهود العصر تسـقط فـي الحفرة. الدميـة، ضمتها إلـى صدرها وداعبتهـا، وغنت لها بلحن جميل، جعلني اللحن الشـجي شـبه أحمق. وهي بنفسها التـي دفنتها. يمكن أن نتخلى عن كل الأشياء، إلا الطفولة.

سـحبت الصنـدوق ودفعتـه في الحفـرة. كان فارغا لحظتها، ولم تعد فيه الروح.

- أعطني يا صغيري ذلك المعول.

أخذته، غرسته في كومة التراب، واتكأت عليه.

- السـلام على الجميع، يا أصدقاء الطفولة والصبا، باسم المسـتقبل الـذي بـدأ! لقـد أحببتكـم، أوه! نعـم. كنتـم كاتمي

أسـراري، ضحكنـا جميعـا، وبكينا جميعا. لكـن، هل تفهمون؟ مـن الأحسـن أن أدفنكم قبـل أن تصبحوا شـهودا غير مرغوب فيهـم في قرننا هذا. إذا كنت قد خبأتكم عن الحضارة، فلأنكم سـتظهرون كعجـزة في دار للعجـزة. لا تريدون هـذا، قولوا، لا تريـدون أن يأتـي اليـوم الـذي يرمـى بكم فـي القمامـة أو في مطرحـة للزبالـة، أو يشـتريكم أحـد مـا مـن متجـر التحـف العتيقـة، ستسـخر منكم الأجيال القادمـة، وتضحك: «هاه! .. انظـروا إلـى تلك المهملات؟.. هاهـا !..» لا، صدقوني، هنا، أمام البحر، لكم مأوى، جزاء لماضيكم الفظ والساذج. وربما، عندما يذهبـون للبحـث عن أصلهـم، رجال القرون المقبلة سينبشـون قبركـم ويصيحـون: «إلهـي! كم كانـت الحياة بسـيطة في هذا الزمـن!»، ربمـا يقولون شـيئا من هـذا القبيـل، لا أعرف. زمن الأنبيـاء قـد ولـى، وسـيدنا محمد آخـر الأنبياء. إلـى اللقاء، أصدقائي! إلى اللقاء في العالم الآخر!

رفعت المعول وقسمت الحفرة إلى نصفين.

- اذهب للبحث عن الشجرة.

ذهبـت لإحضـار شـجرة البرتقـال التـي كانـت مسـندة إلـى السـيارة. غرسـناها على أنقاض الماضي، دككنـا التراب بضربات المعـول، ثـم بكفوفنا. كانـت الأرض تطلق رائحة أعشـاب البحر، وأمـي رائحة الدموع المنهمرة، وأنـا رائحة عرقي. كان البحر يكح كرجـل هـرم، ضائع بين الظلام وبريق النجـوم على الأمواج، كان الحصـان بلانكـو يصهـل. لمـرة واحدة. كانـت المرة الأخيـرة التي اسمع فيها صوته. وآخر مرة أرى فيها ذلك الفيلسوف القديم.

* * *

كل مـا تبقـى في الـدار باعته، فـي البازار وبالمزاد، بمسـاعدة اثنـين مـن الدلالة. أثـاث، زرابـي، أوانٍ، كذلك سـريري. هو ذلك السرير الذي رأيت النور فوقه.

أبـي، لـم يقل شـيئا. متجهم الوجـه، كان يدخل، يـأكل، ينام، ويخرج. في سـاعات مضبوطة. من الفجر حتى الليل، كنا نغني، أمي وأنا.

5

صبغت كل الدار. ووحدها. تلك رغبتها، مكتوبة في عينيها بأحرف كبيرة: «اتركني أفعل»، كنت أمدها بالدلو، الفرشاة والمحكات. وبما أن السقف كان عاليا، كنت أمسك لها السلم كذلك. كانت الدار كبيرة، كان لأمي وقع بطيء، استمرت في الطلاء كل الصيف.

كنا ننام في البهو، في الهواء الطلق، جنبا إلى جنب، كأسرة شديدة الارتباط. لم يكن ينقص إلا المهرج الصغير ليضحك معي قبل النوم.

- تصبح على خير، تقول أمي.
- تصبح على خير، يرد الصدى على سقف الدور الأول.
- نامي جيدا، أقول.
- نامي جيدا، يرد المنادي (الصدى) في الدرج.

وفي لحظة تنام، الرأس على الذراع، هادئة. أنا وأبي نشعل حينها أولى سجائر الليل، من أجل تخفيف رائحة الصباغة، ذلك النوع من الصباغة الزيتية التي تمر رائحتها عبر الجدران. ندخن إلى منتصف الليل. عندما ينهي علبته، أمرر له علبتي. أو العكس، السيجارة الأخيرة ندخنها معا، كأصدقاء، نفثة دخان

منه، وغمامة مني. كان يقول لي بصوته الهادئ، بنبرة حزينة:

- هل ترى يا ولدي، هل ترى؟

- نعم، أبي.

- الزمن يركض أسرع من حصان بري، يا ولدي.

- نعم، أبي. مد لي ما تبقى من السيجارة.

- يمكن أن نغير دارا، مدينة، بلدا. لكن هل بالإمكان تغيير روح أشخاص عاشوا في دار قديمة، مدينة عتيقة، وبلد عمره ألف عام؟

- لا أدري. ربما تحتاج الروح للمسة صباغة كما تصبغ البيوت، هيه، أبي.

- ربما يكون كذلك. طاب مساؤك يا ولدي.

- نم جيدا، أبي. لا تحلم الأحلام القديمة.

- سأحاول.

* * *

في نهاية الصيف، كانت الدار جاهزة. عندما تفتحون الباب ستمرون بمختلف أشكال الخوف الأزرق. خوف نيلي في الدهليز، أزرق سماوي في البهو، المطبخ بالأزرق التركي (التركواز) ومعه المكنسة، غرف النوم تحسبها لون البحر في غرق الليل، وترى لون أزهار العناقية في الغرف. وكل ذلك في الدور الأرضي. الحوائط، الخزانات، الأبواب والنوافذ كلها بالأزرق، والسقف كذلك.

عندما تصعد إلى الدرج تجده أرجوانيا (أمي صبغت كذلك عتبات الدرج) ويستقبلك الدور الأول بالغضب. أحمر فاقع. في

الدور الثاني تظن نفسك في المحطة رقم 17، في الميناء، عندما تكون جبال البرتقال تنتظر دورها للشحن. السطح، لن تشاهده على ضوء الشمس، ستعميك نصاعة بياضه.

* * *

وصلت شحنة الأثاث من فرنسا، أسرة، أفرشة، أوانٍ، آلات المطبخ، مواد التنظيف، مرايا بأرجل، تماثيل، زرابي وبساط «مصنوعة في ليون». ثلاث شاحنات، عددتها، أفرغت شحناتها: كان العمال نوعا ما عنيفين فيما يخص أشياء الحضارة.

خمسة أيام بعد ذلك، كان باستطاعتنا الجلوس حول المائدة. كانت دائرية وعليها غطاء، من دون شك لأن المائدة كانت تشع كالمرآة. أمام كل واحد منا صحنان، واحد مقعر فوق الآخر المسطح، سكين على اليمين، وشوكة وملعقة كبيرة على الشمال، وواحدة صغيرة وراء الصحن، منديل (أو فوطة) في دائرة من الحديد، وفي وسط المائدة سلطانية رفعت عنها أمي الغطاء. قامت بخدمتنا: مغرفتان لها، ومغرفتان لأبي، وأربع لي. مغرفة أخرى ويفيض صحني.

- بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم بارك لنا فيما رزقتنا، قال أبي.

- شهية طيبة! ردّت أمي.

ولخصت:

- كيف ذلك؟ هل هذه هي «الحريرة»(*)، الحساء التقليدي المغربي، قولي.

(*) حساء مغربي.

نظـرت إليّ نظرة مكهربة. أبي وأنــا، كنا ننتظر إليها، انتظرنا ماذا ستفعل. أخذت المنديل من حزامها، سرحته، في أحد أطرافه تم طـرز: «أنــا». قلدناها، مدة ثلاث ثـوانٍ. منديل أبي كان مطـرزا «هو»، منديلي: «ن». سأل أبي، مندهشا:

- من يكون، «هو»؟

- «هو»، ردت أمي. أنت. ألا تعرف القراءة؟

رفع المنديل إلى وجهه كأنه يريد التمعن فيه عن قرب، مسح به أنفه بصوت مرتفع وانصرف صاكا الباب من ورائه.

* * *

اقتنــت محفظــة، وكتبــا ودفاتــر ومقلمــة. ثــم انخرطت في مدرســة خاصة. دروس للدعــم أو دروس مكثفة، لا أتذكر. كل يوم مــا بعــد الظهــر، أقلها بالســيارة إلى ســاحة المدرســة، أذهب إلى الســينما، ألعــب الورق مــع أصدقائــي أو أراقب عمليــات التبادل والمقايضة (كان الأمريكيون عندنا)، ثم في المســاء أذهب للبحث عنها.

غالبــا ما تجعلني أنتظر، هنا، كالغبي، المحرك شــغال، الباب مفتوح ورجلي على دواسة الباب. أضغط على المنبه ولا تسمعني، دائمــا منهمكــة في الحــوارات والضحك الجنوني مــع فتيات في عز الشــباب وآنســات بــرأس البيتزا. كانت تشــد بحــرارة على كل الأيــدي، تصيــح: «إلــى الغــد»، وترجــع لتصيح مرة أخــرى: «إلى الغــد» كأن عصابتهــا لا تحتــوي إلا علــى الصم، تركــب بجانبي، تضع بأدب محفظتها على ركبتيها، تشعل سيجارة وتنظر نحوي بابتسامة ظريفة:

- لم أتركك تنتظر كثيرا، أليس كذلك، تكلم؟

على بعد مائة متر وبعد الضوء الأحمر الذي لم أنتبه إليه أرسلت لها:

- قولي أمي، أنت تعرفين أني أشتكي إليك بصراحة؟

- آه! وعن ماذا؟

- هيا أمي الصغيرة لا تحكي لي الحكايات. إني مررت من هناك، أنا أعرف ذلك.

- تعرف ماذا؟ عن ماذا تتكلم؟ قل.

- عن تلك المدرسة العتيقة. ألم تتعبي بعد؟

- أنا؟ أوه! لا .. بالعكس!

كانت السيارة تتمايل وترتعد إلى أن وصلنا إلى الدار.

ولأنه كان لديها فروض وبحوث ومواضيع- مسائل في الجبر!- تصعد إلى غرفتها وتصيح:

- ابحث في الثلاجة، ربما تجد المعلبات. أنا، سآكل سندوتشا عندما أنتهي.. آه! نسيت.. إذا رن الهاتف، قل إني جد مشغولة.

وهكذا لبست الصدرية في المطبخ- نعم- وطبخت على مهل، لأجلي ولأجل أبي أطباقا خلطت فيها كل اللحوم: البقري، الغنمي، الدجاج ولحم المعلبات. إنه أبي الذي كان سعيدا! ليس من أجل الحنكة في الطبخ، لكن لأننا كنا نأكل في المطبخ. جالسين على أعقاب أقدامنا، الصحون فوق الفخذين، من دون شكليات، لا شيء إلا بأصابعنا، كما في السابق.

- همممم! يقول أبي. همممم! كم من البقر اليوم؟

- النصف، أبي. ربع خروف، ربع دجاجة.

- عكس البارحة؟
- نعم، أبي. من الأحسن تنويع الوصفة. غدا، سأكثر الدجاج.
- أعطني الفلفل الأحمر.

أخرجت من جيبي قمعا ورقيا، فتحه ونثره بوفرة على اللحم، والعيون مشتعلة. وكان جد مسرور.

* * *

كانت أمي تشتري الكتب، بالحزمة. تدخل إلى المكتبة، ترمي نظرة تحليلية على الرفوف، وتسحب بعض المجلدات بإشارة إصبع لا يخطئ.

- أحضر لك حزمة سيدتي؟ يسأل بائع الكتب.
- لا تتعب نفسك، أرد عليه. ستقرأها في السيارة.

كانت توجد بالطبع في مكتب أمي خزانة. لكنها خصصتها لشيء آخر: أزهار جافة، كومة زجاج أخضر، بنفسجي، لون النار، في المكان الذي كانت تشع فيه خيوط الشمس، دمى بضفائر صهباء مملة، راقصات صغيرات من المرجان وصدفات بحرية، مجسمات بأعين كبيرة كان عليّ نفض الغبار عنها باستعمال ريشة الإوز.

كنت أرتب فراشها، سرير الراحة أشد صغرا منها، كانت تدخل إليه وتخرج من دون أن تترك أثرا، كالطائر. أطفئ عاكس الضوء، أفرغ منضدة السجائر في جيب صدريتي، أدخل المكنسة الكهربائية بين صفوف الكتب. كان عليّ ألا أشتتها، بل تصفيفها. كانت الكتب تتأمل، كما يفعل مجموعة العاطلين عن العمل الذين يغلبهم النعاس وسط الطريق في المدينة، الذين

لا يسـمعون لا صـوت المحـرك ولا طلقـات المنبـه. وكانـت الكتب مفتوحـة، وكان علـيّ أن أتركهـا مفتوحة، ولو كانـت جاثية على الأرض.

طاولـة العمـل كانت عبارة عـن لوح موضوع علـى حمالتين، غارقة تحت أكوام من الأوراق. فوق الأكوام الكبيرة، كأنها ضاغطة الأوراق، تضـع الأحجـار، كانـت جميلـة جدا تلـك الأحجار. هنا أيضا، لا يمكنني أن ألمس شـيئا. «لا شـيء، هل تسمعني نجيب؟»، بالرغم من أنه كان خشبا رفيعا من تحت، خشب اللوز بالعقد.

تدخل أمي، السـيجارة على طرف فمهـا، تذهب إلى مكتبها، تُخرج مـن ركام الأوراق، بالأخص تلك التي تتعلق بالدرس، هنا، هنـا وهنا، مـن دون تردد، في اللمس. تسـد محفظتهـا، وتترقب ساعتها.

- هيا، لنذهب، حانت الساعة.

عالم غريب يسكن في أعماق عيونها، نور القمر في ضحكتها، الحيويـة التي تنزل بها السـلم. حـين تصعد إلى السـيارة، تلوح برأسـها بحـركـة صغيـرة خاطفـة، خصلـة من الشـعر تمـر على صدغهـا الأيمن، وشـعور غريب لم أتمكن مـن وصفه، يخالجني وأنا أغير سرعة المحرك.

* * *

أحيانا، كانت تجمعنا على مكتبها، أنا وأبي. تفتح كتابا.
Post partis mortem ،Alexander primum ad Asiam،deinde ad Aegyptorium fines longa via contendit

هل فهمتم؟

- لا، أجبنا في الوقت نفسه.

- إنهـا اللاتينية، يتعلق الأمر بمؤسسـة الإسـكندرية بمصر. هـذا يؤكـد الماضـي البطولـي لهـذه المدينـة، الحضـارة الكبـرى لهـذا البلد الـذي لا تأتي منه الآن إلا الأغانـي العاطفية وأفلام الحماقة. تطور شعب، هذا ما يدهشني، أريد أن أفهم.

أحيانـا أخـرى، كانـت تعلمنـا القـراءة. يعني بـدأت. بصوت مهـذب، تجلـس علـى الكرسـي العالـي المتـكأ، السـيقان جامدة كقضيـب الحديـد. تتصفح كتابا قديمـا، تقرأ جملـة أو اثنتين، ربمـا ثلاثـة- لا أكثر. وتضحـك فجأة. كنا نفاجـأ بتلك الغبطة التـي تأتيهـا علـى بغتـة، فهـي كانـت هكـذا: الضحـك يجعلها تتملص كالهارية، صوت وليد خرج لتوه من الرحم، غناء انتصار ديـك البراري، مواء الهرة في حالة شـبق، فواقـات متتالية، وجه يسبح في الدموع.

- مـاذا بك أمي؟ مـاذا بك؟

- اقـرأ لـي... هوهوهو... اقرآ لـي..... ارف.... ارف... اقرأ لي هذا، من أجل المحبة.. محبة الله... هوهوهو... هي.

آخذ الكتاب وأخطب:

- الأعراب يحلقون الرأس، باسـتثناء خصلة وسطى، يظنون أنـه سـيأتي من يشـدهم منهـا ليأخذهـم إلى الجنـة» عجبا! لا أعرف، لكن ذلك مكتوب.. يجب أن أذهب عند الحلاق.

- أوه! توقف.. توقف!

قاطرة بدأت تنفث البخار. إنه أبي الذي يضحك.

- صفحة.. صفحة.. هيهيهوهوهوارف.. تابعت أمي.. صفحة 147.. هوهوهو يا ربي!

- تقولين صفحة 147؟ هات لأرى ذلك «الكسكس يُقدم في صحن كبير وحيد وكل الضيوف يحفرون أمامهم حفرة، من أجل رسم الحدود».

تنهار فجأة (والكرسي كذلك)، تدق الأرض بلكمات، وتصرخ: «توقف.. ارحمني.. لا أقدر على الاستمرار...».

- إيه حسنا ماذا؟ أرد فجأة. ألم تسمعي قط الكلام عن الكتاب الهزليين؟

* * *

كانت جد متعطشة للتعلم في غياهب الصحراء، تبحث عن الحقيقة من وراء الكلمات، تقلب كل كلمة كالحجر من أجل أن ترى ما تحتها، سحلية، عقرب أو تربة خصبة، من أجل التحقق إذا ما كان لها ثقل أم لا، حقيقة يومية، روح قادرة على الكلام مع روحها. هذا ما فسرته لي، مرارا، إلى أن فهمت. كانت تريد أن تتعرف بـ «علوم حقيقية». كانت تكشف كتابات غريبة تعري لك الأسنان. مثال: «ستويزم الصيني: يمكن تقسيم الصيني إلى نصفين، طولا، من دون أن يُطلق أدنى صرخة؛ هذا يفسر بخاصية تشريحية: الصينيون ليس لديهم جهاز عصبي».

- وهذا يعني، تزيد أمي، ولهذا فإن الغربيين لا يتحملون الألم ولا الصبر، لديهم أكثر من جهاز عصبي. إنهم جد حساسين!

تقول إنها لا تتعلم من أجل التعلّم. لكن من أجل تغذية وتجديد دمها. إنها كانت نائمة إلى درجة فقر الدم، وهي

الآن مستيقظة، حتى النهاية. لم تكن تريد أن تترك شيئا للمصادفة، تدرس عدة منشورات للكاتب نفسه، مراجعة ومصححة بانتهازية، تقارن تعريف الكاتب بما يقوله في الأجزاء المضيئة، «تصاحب السارق أو الكذاب إلى الباب»، كان ذلك تعبيرها. النشاط يروضها كالحصان في مشيته، العروق بارزة في العنق، والشعر في الهواء.

- إلى اللقاء سيدي. آسفة، هل تعلم؟ أريد الحياة وليس الطيارات. إلى الباب، تولستوي! تصرخ وترمي بالمجلدات المذهبة الجوانب. أنت كتبت أشياء رائعة حول الحب والمرأة، لكنك كنت زير نساء في حياتك الخاصة، إني راقبت. إلى الباب، هيا! إلى الباب، الشعراء العرب بشعر الرماد! أبكيتموني بشعركم الرومانسي ولأني لم أكن أعرف شيئا عن العالم. إذا كان كذلك، إذا كانت أشعاركم صحيحة، لماذا يا ترى مجتمعنا مريض؟ لماذا حبست المرأة كالحيوان، لماذا حجبت، لماذا قطعوا أجنحتها هنا وليس في أماكن أخرى؟ إلى الباب، قلت لكم! إلى الباب، أنت كذلك، بيار لوتي، على الرغم من أني أحب البحر. هل عشت في بحر الشرق الرخيص، قل لي؟ ربحت الكثير من النقود والجاه، لكن الشرق ليس هكذا بتاتا، بتاتا.. وأنت، عالم الأحفوريات من قال لك إن الأرض واقفة على ظهر عملاق، ماذاتفعل هنا؟ أنت توفيت منذ قرون، على ما أظن! اخرج! ماذا! يفعل هنا كتابك القديم الذي لم يعد له معنى؟ اخرج! غير معقول! الكائنات البشرية منذ القديم رجعت إلى طينتها لكن أغلاطها مازالت باقية. غير قابلة للتمزق! اخرج إلى الباب!

كانت ترمي الكتب في الرواق، بذراعيها. كنت أجمعها بلطف وأرتبها في كيس. البقّال سيمنحني الفول السوداني أو حبوب اليقطين.

قالت لنا ذات مساء:

- هل ترى، هل ترى؟ (وكانت تتوجه إلى أبي وإليّ، ترج ذراعينا كل وفق دوره).. هل ترى؟ طفل قرأ كل الكتب من قبلي أنا. كان أصغر مني، بالكاد تكون جسمه ومخه، وكان بمقدوره أن يفهم. ماذا وجد، لا أعلم. ربما كان ذلك تدفقا إلى الأمام. كل واحد منا يهضم الثقافة وفق معدته.

- أنت تتكلمين عن المهرج الصغير أمي؟ أوه! إن ذلك شيء بسيط، إنه كان مصابا بالإمساك، ولم يهضم بعد. الدليل، أن في رسائله لم يعد يتكلم عن العودة إلينا.

لم تسمعني. أبعدت بهدوء يد أبي الذي كان يريد ملامسة شعرها. واسترجعت ريقها وبداية نحيب، وابتسمت بشجاعة.

- الشيء الذي أريد، الذي أثابر من أجله، هو أن ألحق به. نعم، ألتحق به، ألتحق بشبابه، بحماسه، أن أكون بجانبه عندما يكون الغد عامرا بالشباب ويكون العجزة في التقاعد. أبني معه، أن أفعل شيئا لحياتي.. أوه! لا أعرف كيف أفسر.. إنه هنا، بداخلي، أحس به.. اذهبوا! اتركوني أعمل.

خرجنا لتونا، أنا وأبي، ذراع على ذراع، وأغلقت الباب. كنا في السلم الذي يؤدي إلى السطح عندما لحقت بنا. كانت الابتسامة على محياها كظل طائر على الأرض.

- قولوا، هل أقلقتكم؟

- لا، رد أبي.

- لكن لا بتاتا، زدت على ما قيل. إذا ما رأيتِ سحنتنا مظلمة، يعني أننا نحاول التفكير بعمق: لم نعرف بعد هل سنبدأ لعب البوكر أو الكناسطا. هل رأيت؟ إنه لشيء بسيط.

- لكن نعم! لقد أقلقتكم. إني تعيسة.

- لا تهتمي.

- هيا، اذهبي للعمل. إن لديك امتحانا كتابيا غدا. سأساعدك جيدا، أمي الصغيرة، لكن الجبر يجنني.

عانقتنا، وضمتنا إلى صدرها.

- أوه! أنا جد فرحانة.. جد فرحانة.

وهربت مهرولة.

فوق السطح، جلسنا فوق صندوقين للبرتقال. خلطت الورق وقلت لأبي:

- اقطع!

لم يقطع، أدار رزمة الورق وفلك طيها كمروحة.

- هكذا، قال، حسن جدا. الرابحة في وجه، والأوراق الصغيرة في الوجه الآخر.

- كيف ذلك؟ هذا عجيب. مع أنني خلطتها بما يكفي. ربما لأنها كثيرة الانزلاق؟

انفجرنا بالضحك. كنت حقيقة كأنني أحلم، الشمس تغرب في المحيط، الحمام يطير مخلفا صفيرا في السماء وكان أبي هنا، قبالتي، يمكنني لمسه وإعادة لمسه.

- هل تريد فعلا أن تلعب البوكر أبي؟

- لا. وأنت؟

- لا. أنا لريح دائما، لا أدري ماذا أفعل.

- أعطني سيجارة.

بكل سرور، أبي. قل، ألا تدخن بشراهة في الأيام الأخيرة؟ ألست حزينا؟

- حزين؟ لا.

- متذمر؟

- هل أبدو كذلك؟

- أريد القول: ماذا تقول حول زوجتك؟

- لماذا تسألني هذا السؤال، يا ولد؟

- هل تكلمني، هيه، أبي؟ إن ذلك سيريحك. هيا، أفرغ قلبك، أنا أسمعك.

- لا شيء غير هذا؟ إيه حسنا، سأقول لك: كأنني تزوجت امرأة جديدة، بالكاد بدأت أتعرف عليها، أما التي كانت عندي فلم أعد أعرفها.

- يعني هذا أنك سعيد؟ أو أنك خائف؟

- الاثنان، يا ولدي.

- لكن طبعها جيد.

- أصدقك.

- وهي، هل لديها رجل جديد؟

لم يجبني. كان فقط يدخن. دخن كامل العلبة.

* * *

رجل صغير التقيته في الشارع ورفع قبعته، ابتسم في وجهي بأسنان المسعور، يحك يديه كأنه يغسل بالصابون، بدأ

جملة وابتلعها مع ريقه، على الرغم من أنه كانت لديه نظارات المثقف.

كان الوقت يقترب من الظهر، أخذته إلى سطح مقهى ومنحته كأسا. شربه بِرشفات سريعة، تأمل في قاع قبعته. وطلبت النادل:

- املأ لنا هذا ثانية، بكمية مضاعفة. اثنان. بسرعة. الكحول وشمس الغروب أذابا الجليد عن الرجل الصغير. كان مسرورا بمعرفتي، أنا، ابن أمي الجميلة. لكنها، عن ماذا كانت تبحث بالضبط؟ التعلم، الثقافة، النجاح في الحياة، أو أن تضعه في وضعية منحدرة أمام طبقتها؟

- أوه! إنها مجتهدة، حية، وجد ذكية. إنها تملك الحسن والفرح بالحياة، لكني أفضل البليدات، على الأقل التلاميذ بمستوى متوسط. هل تفهم، سيدي العزيز، كل مرة أراها تدخل وتجلس في الصف الأول، كنت أحس بالرعب عندما تطرح عليّ الأسئلة.

- اها؟ ولماذا؟

- لماذا؟ أظن أنه لا يوجد أستاذ في العالم قادر على إجابتها، سأقول لك، سيدي العزيز: ثلاثة أرباع الساعة بعد بداية الحصة، ترفع بخجل إصبعها وتقول لي بصوتها الرزين: «لكن، سيدي، الأسبوع الماضي أكدت العكس»، بماذا أجيب، أسألك؟ ليس عندي ذاكرتها المدهشة.

- أفرِغ كأسك. سيجارة؟

- شكرا. لو كانت وحدها، سأتدبر الأمر، أحاور، أغرق الخصام في تفاصيل السؤال. لكن لديّ اثنان وثلاثون تلميذا في سن

المراهقة الذين ينفجرون بالضحك حينها، أو، أسوأ، يبدأون بالسخرية.. آه! السذج، آه! السذج.

- اسخر بدورك، أكثر منهم، وسيكتمل المشهد.

- تظن أن ذلك سهل؟ خذ، ليس أبعد من الأمس، طلبت مني الاسم الأول فرسينجيطوريكس. لم يكن بوسعي إجابتها. أنا أستاذ التاريخ، سيدي. مؤرخ!

- هيا، امسح أنفك. هل تريد كأساً أخرى؟

ناقشنا الصداقة، وانتقلنا إلى التحرير، إلى «مشاكل أسرة التعليم»، إلى «الجيل الجديد، إلى الطليعة التي تتماشى مع السيدة أمك».

6

يــوم الأحــد، كنت علــى الطرقات. أمــي تقوم مــع صديقاتها «بغداءات للمناقشــة الأســبوعية وفق الدور»، مرة عند هذه، ومرة عنــد الأخــرى، وكانــت الصديقات كثيرات ويســكن فــي أي مكان في البلد، من الشــمال إلى الصحــراء مرورا عبر جبال الأطلس. أمــي لا تعطيني التعليمات إلا يوم الأحد صباحا. تفتح خريطة الطرقات، ترسم علامة وتقول بصوت دافئ:

- هنا.

أضع لأي احتمال حاويتين أو ثلاثا من البنزين في الصندوق الخلفي وأطلق الســيارة إلى الطرقات، المســالك، على الأشــواك، والمســارات، الحفر، قطعان المعز أو الجنود. كان المحرك يصبر في كل الأحوال. قمت بتعديله احتمالا لتلك الجولات الطويلة.

- نجيب؟

- نعم.

- أنا سعيدة.

- أنــا كذلــك، أمي الصغيرة. هل تطلقــي ذراعي، هيه؟ أنا في حاجة إليه للسياقة.

- أنــا ســعيدة، جد ســعيدة! وُلِدت في بيت لــم أعد أتذكر منه

إلا الظلام، قضيت نصف عمري في سجن ولا أدري أين سأموت. ومن الآن فصاعدا، سأذهب من أفق إلى آخر، سأقطع المسافات، سأعرف، سأحب هذا البلد في كل الاتجاهات، لأنه.. لأنه ملكي.

- إذا أردتِ البكاء من الأحسن أن أُقلل من السرعة. أشعلي سيجارة، أرجوك.

- ابكي من الفرح، ابني، من أجل روعة الحياة. هل ترى ذلك البغل هناك، الذي يحاول ضرب الفراغ بذيله؟ إنه أخي! هو بدوره وُلِد ويعيش في هذا البلد. أنا مقتنعة بأنه يعرف الكثير، الكثير من الأشياء التي لا أعرفها.

- نعم، قلت. إنه عالم بأربع قوائم: يعرف أننا نضع الكثير من الأحمال على ظهره، يعرف أننا نضربه، هيه، رفيق! كأنه يدري أن جنازة مهيبة في مجزرة ستكون من نصيبه.

- وماذا بعد؟ تهاجم أمي، وتتطاير من الغيظ، جثتنا لن يأكلها الدود؟ هل تفضل أن نصنع منها النقانق؟ ما الفرق؟ تظن أن الناس الأحرار كما نظن، أن نكون نحن، لن تكون لديهم القيود طوال حياتهم؟ ألم يكن عبدا مقنعا في صفة حر؟

- هيا، أمي، اهدئي. حاولي أن تكوني عاقلة. البغال والحيوانات الأخرى ليس لديها حق الكلام عندنا. لا ينتخبون، ليس لديهم ممثل في المجلس، ولا في البوليس.

- لأنك تظن أن لدينا الحق في الكلام؟ كلنا؟ أنت مثلا؟

- آوه! أنا، تعرفين.

- ادن، قد السيارة، واسكت واسمع لأمك!

- نعم، ممي!

- علـى كل حـال، لـم يبـق لـديّ ما أقولـه. إنه خطئـك. أنت خلطـت كل شـيء فـي رأسـي، بطريقتـك حيـث لا تأخـذ الأمور بجدية، وأن تتجرأ بالتهكم بكامل أضراسك الكبرى.

- الضحك ملح الحياة، أمي الصغيرة.

- إيه حسن، أنت تملّح الأمور كثيرا! هذا يبعد السرور.

وأغلقـت فاهـا كمـا تغلـق السـدادة، أغلقـت عينيها، لمسـافة كيلومتر واحد أو اثنين، لم يتبق بجانبي إلا متظلم حي وصلب، مكور، كالذي انتظر منه أن يخرج أظافره الحادة. ثم فجأة تحرك كتفيها، وتقول:

- بليد!

- نعم أمي. أنا بليد، أبصم. أعطيني القلم.

دائمـا هكذا، كل أحد. ضرب مـن الطقوس. أبدأ برمي حفنة مـن الملـح في الحـوار (أظن جيـدا أن أمـي تنتظرهـا)، وأعترف أنـي زدت المقيـاس، ونتابـع ما تبقى من السـفر، نقطعه في خط واحد، السـيارة تسير ودواسة السـرعة على آخرها، الريح تصفر علـى الواقيـات الجانبيـة المفتوحة، وأمـي منهمكة في اكتشـاف العالم بحيوية منقطعة النظير، حقول قاحلة إلا من بقع الدوم (نباتـات الحلفا) المتناثـرة، خطوط حمراء عليهـا كروم خضراء كلون الحياة، براري مغطاة بالأزهار تتطاير بجانبنا كالفراشـات، مياه الجداول التي تنثرها عجلات السـيارات كشلالات من النور، أحصنة تركض بجنون في الأفق، شلالات تبرق بألوان قوس قزح، وهـذه السـماء، يا إلهـي! تصيح أمي، السـماء مـن دون حدود لا جنس ولا ملة، يوما ما، سـأعمل ما أحس به، سأدفع كل الأبواب،

سأكون في محلي في كل الأرض، في كل مكان بسروري، سأقطع العالم من شمس إلى شمس، لأني ولدت ولأنه ملكي.

وعندما نصل؛ نجد القرية أو المدينة في حالة انتفاضة، مع هذا وذاك، في الأماكن الإستراتيجية، بعض رجال الأمن العام في حالة استنفار، مستعدون على دراجاتهم لإثبات الأمن. كل صديقات أمي كنّ هناك، جرى تبليغهن عبر الهاتف الغربي وليس الهاتف العربي الذي كان أكثر نجاعة- ومن دون مقابل- جاءوا بدورهن على متن السيارات مثلنا، عبر الحافلة، على ظهر الجمال. كان أزواجهن حاضرين بدورهم، متسمرين في الساحة، ذكورا بمراتبهم المختلفة، مجردين فجأة من أي سلطة. أمي تدعوهم للالتحاق بنا، لكنهم لا يعرفون لماذا «نحن» زعزعناهم ونزعناهم عن عاداتهم وعن بقعة الأرض الأزلية، يشكرونها بطرف شفاههم طالبين الصبر على قدرهم، ويبقون هناك، حتى المساء، مضربين فوق الركام.

كسكس فائر أو خروف مشوي على الفحم أدور به من جماعة إلى أخرى على متن قصع أكبر من دروع فرسان الغال، يقبلون بسرور بعض اللقيمات، اللحم بالخصوص، يلتهمونه بتأنٍ من دون النفخ فيه. يسلون بعد ذلك غليوناتهم الطويلة (السبسي)، يملأونها بالتبغ، يدخنون بنشوة، ويحتسون جرعات من الشاي بالنعناع، نفثة وجرعة من أجل انسياب الدخان إلى أعماق الماضي. تنحنح الحناجر، محادثات متناثرة، وهذا كل شيء. تمر بين أرجلهم الكلاب الضالة التي تشمشم، والدجاج ينقر البقايا. ولا يطردونها.

الرئيس المسـير للخلية، هي أمي تنظم توزيع الطعام، تقسـم النسـاء في مجموعات دراسـية بثـلاث أو أربع فـي كل مجموعة، تذهـب من هذه إلى تلك، تراقب، تنشـط، مـن دون توقف بحركة وحمـاس. موضـوع واحـد فـي كل جلسـة. مثـال: «كيـف نـدك الجبـل؟». أو «مـاذا وقع لبلدنـا في سـنة 1912؟» وأمثلة أخرى: «إذا مـا تخلفـت المـرأة عـن واجباتهـا الزوجية، هـل تحصل على اسـتقلالها؟ أو هـل سـتكون أول امرأة يتم تأنيبها؟ اشـرحوا مع إعطاء أمثلة محدودة».

كانـت تلوك وتجعلهم يلوكون حزمـة واحدة من القش في الوقت نفسه ، بتأنٍ، بعناد، تساعدهن في جمع البقايا من أجل اجترارهـا . لا تتـرك فاصـلا للراحة. تفرز الحب عن الشـيلم، تحـث العناصـر المهمـة لتعليـم الضعيفـات. تـوزع الجوائـز، الدرجـات، التأنيـب ضـد المواضيـع التافهة. تجمـع تلامذتها فـي جمـع عام حيث يكـون للجميع الحق في الـكلام، كل وفق دوره. كل شيء تعلمته بثمن عزيمتها، تعطيه لهن بدلا من أن تبلغه لهن، حصة بعد حصة، إلى الأرجاء الأربعة للبلاد. وكما هي- بشبابها وبصبرها، بإيمانها- كانت كمصباح وحيد في كل الأعين.

رأيـت التالي: نسـاء مطلقـات في الميدان لأنهـن يعرفن أكثر من أزواجهن. وأمي تصفق لهن. هن كذلك، أصبحن أكثر سعادة.

وعرفـت التالـي: علـى مـر أيـام - موائـد الحـوار- زوجـات البرجوازية «يعتذرن في آخر دقيقة بحجة المشـاغل»، كن يعتذرن كل أحد.

- هاها! استخلصت أمي. في الحفرة! بالإمكان أن نغير في يوم ما كل شيء في العالم- كل شيء، إلا النقود. إلى الحفرة!

الاجتماعات الأولى كانت عبارة عن احتفالات، مثل لقاءات فلاحي الحماية أو شيء من هذا القبيل بالأخص من أجل إرضاء الفضول وأن هناك إنسانة موضوع إثارة - أمي - والتي ذاع صيتها على بعد كيلومترات، معروفة بطيبتها في التواصل. عن قرب يتم في آخر المطاف التعرف عليها، بلحمها وعظمها، بالكامل، من أول دقيقة. وكانت تأتيهن بأشياء أخرى. لا شيء، ولا غرام واحد من تلك الثرثرة أو التسلية التي كن يحضرن إليها من بعيد. صحوة ضمير جاءت بشكل متدرج، الطبل يدق، بدراسات متحمسة في جماعات ثابتة الرأي.

الآحاد الأخيرة كانت متفرقة كالجبال عندنا، ممددة كالسهام. من بين الكثير من الصديقات، لم يدم الصمود إلا في القليل منهن، لم تصمد منهن إلا العشرون. لكنهن في ذلك العدد القليل كن يعرفن مثل أمي، إن لم يكن أكثر، معنى العزلة.

- من الأحسن! صاحت أمي. لا أقدر على حمل الجبل، لكني أقدر على حمل حجر.هذا يكفيني بكثير.

نجتمع دائما في تاريخ محدد، الأحد، مرة عند هذه، ومرة عند الأخرى، لكن لاحظوا هنا: المدن والقرى التي نمر منها تكون فارغة عند اقترابنا. والمارة على قلتهم ينظرون إلينا نظرات تهديد، ويشهرون قبضات أيديهم. يرموننا بالأحجار، يقطّعون عجلات السيارة. وحينذاك بادرت باصطحاب عصابتي. البعض منهم كانوا يحموننا راكبين على دراجاتهم النارية، والبعض الآخر

يسافر معلقا على باب السيارة. وهكذا، كانوا بشكلهم وبشعرهم الأشعث، والشفاه المثنية على أضراس رجال العصابات، رجال صديقات أمي- أزواج، أبناء، أبناء العم، أعمام- كانوا يتكاثرون، يتضاعفون عددا وعداء. وحصلت بالفعل المعركة الضارية، حيث كان أصدقائي وأنا نترك فيها الأسمال في الدرب، والآخرون يتركون بعض الأسنان. في طريق العودة، تقول لي أمي:

- أعرف ماذا سأعمل. بما أنه أصبحت لديّ صعوبة في اللقاء مع صديقاتي، سأطلب منهن المجيء. هكذا سأصبح قريبة منهن، كل أيام الأسبوع.

- أين هذا؟ يجئن إلى أين؟

- عندنا، بالطبع. الدار واسعة.

- أنا، لا أرى مانعا. بالعكس، صدقيني. هل فكرتِ لمدة ثانية في أبي؟ ماذا سيقول؟ ماذا سيفعل بكل تلك النساء؟

- لا أدري. حقيقة. سأرى فيما بعد.

- نعم. همممم! نعممممم! لكن افترضي أنه قبل، ماذا ستفعلين بكل تلك الفرسان الإقطاعية؟ أن تتأملي في عيونها الحمراء، إنها ليست هينة.

- أنت تريد الكلام عن الأزواج؟ إيه نعم، هؤلاء المسكينات سيطلقن، هذا كل شيء. أعطني سيجارة.

- بكل سرور، امممي. أنت تعرفين، أنت هائلة. أنت تحلين كل المشاكل، من دون أن تترددي ثانية، والحل الذي تجدينه غير قابل للاستئناف.

- هل تتهكم عليّ مصادفة؟

- أوه، لا. بتاتا. أحبك.

- لست في حاجة إلى أن أكون محبوبة، اجعل هذا الكلام في مخك. عليّ أن أهتم بالناس، إنها حياتي. لا أقدر، لا أقدر أن أكون سعيدة عندما يكون الآخرون تعساء. ماذا سينفعني ما تعلمته من علوم؟ أفكاري، مكتسباتي، عواطفي، يجب أن أترجمها إلى أفعال، من أجلي ومن أجل الآخرين.

- أنت حزينة، أمي؟

- نعم، أنا حزينة. لا أعرف لماذا يخافون من الطيبة.

- دخني، امممي. استرجعي دموعك ودخني، إنه أمر. فكري في صديقاتك اللاتي سيأتين لزيارتك.

- نعم، هذا سيكون رائعا.. أوه! أنا أفكر في ذلك: لماذا لا آتي بهن إلى المزرعة؟

- عشرة على عشرة، امممي. فكرة هائلة. لن أتمكن من إيجادها، أنا. تابع، احكِ لي عن حياتهن القادمة في هذه المزرعة.

- لن يكن غريبات كما في بيتنا العصري. ستبقين أقرب إلى الطبيعة، وأنا كذلك. سأذهب لزيارتهن أكثر من مرة في الأسبوع، سنزرع الأزهار، ونغرس الأشجار التي ستكبر وتصبح شاهقة. كل شيء سيكون أخضر، كل شيء سيكون جميلا، الأرض، الناس. ستقودني إلى هناك، كلما طلبت منك ذلك، أليس كذلك يا ابني؟

- وكيف ذلك؟ بالقرب من صديقاتك، سأختار ثلاثا أو أربعا أكثر جمالا، يا روحي.

- بليد!

- نعم امممي. أنا بليد. هل أوقع لكِ على الورقة؟ هات القلم.

- بليد ثلاث مرات!

- حاضر! كلما أفتح فمي، أقول الحماقة. سأسكت. أخيط فمي. موافق. إذن، إذا كنت أفهم جيدا، ستكون لديك عصابة؟

- كيف ذلك؟

- مثلي أنا. عصابتك وعصابتي، ستكون شيئا، قولي إذن! وإذا عملت جهدا صغيرا للتفكير، وجاءتني فكرة بليدة: مدرستك، هل بإمكانها أن تغلب «مدرستي»؟ هيه؟

- سمّها كما تريد، ما تعلمته في مدرستي جعلني راشدة، بينما أنت، لم تتغير.

- إنه شيء حسن ما أقول. نحن من جديد مجتمعون.

- أنت تخلط كل شيء، وتشوه كل شيء.. نحن دائما مجتمعان، أنت تعرف ذلك جيدا.. لكن ليس زيادة.. أوه! ثم إنك أكثرت! تستحق صفعة.

- نعم، امممي. أعطيني واحدة.

- زييت! لن أكلمك.

- ألم تعودي حزينة؟

- لا.

يا ربي، ما أروع السياقة في الليل وبهذه السرعة!

7

أبي، قال لي:

- ابحث في الإنجيل، الوصايا القديمة، الوصايا الحديثة. خذ التلمود، القرآن، الزهير، كتاب الهندوس. في أي مكان، في كل الديانات لن تجد إلا الرجال. لن تجد «نبية»، ولا واحدة أرسلها الله. عشنا على هذا الأمر منذ قرون ولم نشتك، نحن، الرجال. حينما بدأت أمك تضع النوافذ مكان الأبواب والعكس صحيح، في بيتي، ابتسمت آنذاك. نعم، ابتسمت أمام كثرة الأعمال الصبيانية. وكنت أقول إنها ربة بيت، لكنها بقيت طفلة. الأطفال يودون تفريغ الشحنات التي بداخلهم.

- كما في السيارات، هيه، أبي؟ يتعين عليك في كل مرة تغيير الزيت.

- نعم. تقريبا كما تقول، لكن أمك لا علاقة لها بالميكانيك. كنت أقول: هذا سيفوت. كنت كذلك أتمنى أن ترمي خطوة خاطئة، أن تزيغ، أن.

- .. أن ينكسر وجهها؟

- أنت تُؤول بالمصطلحات العنيفة أحاسيسي المهذبة. لكن لنفترض مع ذلك،لا شيء وقع لها، استمرت في التقدم إلى

الأمـام ولـم يكـن لـديّ إلا أن أتصالح، كان علـيّ أن أتحمل دوري كرجل، كما كنت أتمنى.

- إذن أنـت تصالحـت وحـدك؟ وقفـت على ركبتيـك وتغنيت بأغنية الأطفال الرضع؟

- إن أردت ذلـك- كمـا أقـول في حديثي في هذه السـاعة، أنا أتكلـم معك لا ألعب الريكبي. لا، يا ولدي، ليس عليّ أن أتصالح مـع الوضع كمـا تقول. عينـي كانت مفتوحة، لكني اكتشـفت أن أمك كانت، وحدها، الوعي لعالم غير واعٍ.

- هي التي تصالحت معك في النهايةَ؟ هيه، أبي.

- نعـم. أن أراهـا كذلـك، بحيويـة أكثـر فأكثر، بـدأت أتمنى، وأفكـر. هـل تعرف لمـاذا مجتمعنا الإسـلامي بعد زمـن الازدهار، أضحى في آخر الركب في عصرنا هذا؟

- اتركني أفكر لحظة.. هيا! ربما لأننا اكتشفنا حقول البترول في بلدنا ولا نريد تلطيخ أيدينا؟ نفضل من دون شـك أن نطلب الغربيين، ليسـبحوا في البترول، وسيشـربونه.. أما نحن، فعلينا أن نتـرك لهم ذلك العمل الوسـخ، في المقابل، يعطوننا مليمات. إنهم عبيدنا في شـكل آخر. في هذا الوقت، نسـتريح أكثر فأكثر. هذا هو، أبي.

- إنها نظرة اقتصادية للأشـياء. عليّ أن أتكلم مع شـركائي، أثنـاء جلسـة المجلس الإداري المقبل. لا، ليـس هذا بتاتا، نجيب. قبل البترول،كانت أشـياء أخرى، أتذكر الآن. أسـاس كل مجتمع، كانـت الجماعـة. وجوهـر الجماعة، إنها فـي الواقع الأسـرة. إذا ظلـت الزوجة داخل هذه الأسـرة محبوسـة كما فعلنـا نحن لمدة

قرون، إذا لم يكن لديها أي منفذ على العالم الخارجي، أي دور فعلي، المجتمع بأسره سيتأثر حتما، سينغلق على نفسه، ولن يبقى له ما يجلب، لا لذاته ولا لبقية العالم. سيكون المجتمع غير قادر على البقاء، بالضبط كالمؤسسات العائلية العتيقة التي تتفتت في البورصة عند أدنى عرض عمومي للشراء.

- أبي، لم أكوّن قط عائلة، أنت تعرف ذلك. ثم، كما تراني، أؤكد لك أنني مازلت عازبا. إذن، لا يمكنني أن أجيب عن سؤالك. عندي بعض المشاغل في المدينة والنواحي، لكنها لم تطرح بعد في البورصة. هناك شيء يحيرني: قل لي، نبدأ في فهم بعض الأمور عندما نبلغ سنا معينة من الكبر، هيه، أبي؟ تمر الأمور دائما هكذا؟

- ربما. لكن فات الأوان. سبق أن تركت فرصتين: أخوك ترك هذا العالم وأنت، عائلتي.

- أوه! لا، أبي. أنا مازلت هنا، أجلس قبالتك، ضع النظارة.

- منذ مدة خرجت إلى الشارع تبحث عما ينقصك هنا.

- أنت حزين، أبي؟

- أكثر مما تتصور. إني ساخط لأنني لم أفهم منذ البداية. ومع ذلك، فالأعمال التي أديرها كان من شأنها أن تريني الطريق. عندما تأخذ أحد الأعمال منحنى الانحدار، أعرف كيف أعيد تقييمها من يوم إلى آخر، بضخ رأس المال. كان لديّ رأسمال بشري، كان دائما هنا، بالقرب. ولم أتركه رهن الإشارة لأي أحد.

- بهذا، لا أرى إلا تفسيرين، أبي. إما أنك لم ترد إقراضه إلا بضمانات قوية علاوة على سعر الفائدة، كان يجب أن يأتي لك

بشيء ما.. وإما أنك كنت خائفا من أحاسيسك الشخصية.

- كنت لا أقدرك ولدي. اسمح لي.

- لا تهتم يا والدي. نحن في النهاية مجتمعان. هل تريد سيجارة؟

- نعم.. من الأحسن أن أدخن.

- دائما التبغ نفسه ، لم أغير النوع. ومع ذلك، نكهته أفضل، ألا تلاحظ؟

- بالضبط.

- حسب الساعة، يوم السنة، وطريقة التدخين، إن ذلك يرتبط بأدنى الأشياء. لكن مع ذلك لايزال الوقت غير متأخر كثيرا، كما تقول.

- تكلم لي الآن عن أمك.

- بدأت تقلب الأشياء في أي مكان أينما مرت. ويأتي الناس ليشتكوا منها، من أجل إثارة انتباهي إلى «حماقاتها». رفضت سماعهم. إنهم يشبهون ذلك الرجل الذي كنت أنت هو في السابق. حاولت أن أفهمها، هي. وهي التي أرتني الطريق. عندما تدخل الآن إلى الدار، أنهض حينها، ولا أرى أمامي فقط امرأة جديدة، لكن، عبرها، أرى رجلا جديدا، مجتمعا جديدا، عالما حديثا.

- أبي، انهض، من فضلك.

- لماذا؟

- انهض، إنه أمر.

أطاعني، أخذته بذراعيّ ورفعته إلى أعلى. ثم، برغم لعناته،

وصيحات فرحه وألمه، كنت أدور به على نغمة من تأليفي، من دون أن أكف عن عناقه.

* * *

في ساعة الاستقلال، كانت أمي على متن القاطرة، وليس في المقطورة من الدرجة الأولى، أو مقطورة السلع. كانت توجد في كل اللقاءات، تقيد الملاحظات، لا تتردد مطلقا في الاعتراض وجعل المتكلم يتراجع عن قوله. لماذا ذلك يغضب بدلا من إعطاء التفسيرات التي تنتظرها منه «بعبارات بسيطة، مضبوطة ومحددة»؟ كل مرة يغرق السمكة، وأمي تغوص حينها في الجمل وصياغتها، ترجع تلك السمكة من ذيلها من أعماق الهاوية.

- ها هو، الموضوع! تصرخ، واقفة فوق المقعد، الخدود حمراء، وكذلك المنطق. نتكلم بوضوح، سيدي، من فضلك. غير ضروري الذهاب بأربع طرق. أسمعك.

عصابة صديقاتها تخدمنها بالتصفيق، عصابتي تؤمن مصلحة الأمن وأنا كنت هناك، واقف في وسط الصالة. كان السياسي محاصر ولا يمكن له الهرب. يأخذ ريقه، نفسه، أرواحه، يطوف حول نفسه مذهولا، ربما من أجل البحث عن سيارة أجرة، ويتقدم بعد أن يسترجع أنفاسه بابتهالات ربانية:

- بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين...

- تابع! تابع! ترد أمي. ثم، وذلك الإصلاح الزراعي؟

وهكذا حلت نصف فرقة من الشرطة في دربنا، أمام الدار، في حافلة جديدة ناصعة الطلاء. أمي دعتهم بكل قلبها مع براد شاي كبير، ثم مع غلبهم في لعبة الورق «جن- ريمي»، حينها

كانت تعلمهم ويتفهمون وهم محرجون، بأنه لا يوجد فرق كبير بين زيهم القديم « بوليس الاستعمار» والزي الجديد «بوليس حر في بلد حر». « ربما اللون؟ تؤكد أمي، ضاحكة وبكل احترام»، « أوه! نعم، يدندنون..»، «ألا تلاحظي أن هناك تحولات بالرغم من كل ذلك. الخراطيش بدورها من دون شك؟ أريني لأنظر قليلا...» يأخذون مسدساتهم، يتأملون فيها، فرحين ومبتهجين في الوقت نفسه. كانت من آخر طراز للخدمة، لكنهم لم يجربوها بعد. «سيتم ذلك، تواسيهم أمي، سيأتي الوقت».

ذهبوا بالحافلة بعيدا شيئا ما، في المكان الذي تبدأ فيه مدن الصفيح. عندما نخرج، كانوا يتبعوننا مع أخذهم المسافة، ثم يتراجعون القهقرى. عندما نعود كانت أمي تقوم بالواجب، تذهب لحافلتهم وتتمنى لهم ليلة سعيدة.

- أنتم مضطرون إلى المبيت داخلها؟ ألا تريدون حقيقة المجيء إلى الدار حيث تجدون هناك أفرشة مريحة؟

- غير ممكن، سيدتي. نحن في الخدمة.

- هل أنتم مضطرون إلى أن تقوموا بهذه المهنة؟

- يجب علينا ذلك.

- إيه، طيب، ليلة سعيدة، سادتي. أتمنى لكم حلما جميلا. سآتي صباحا لإيقاظكم.

- ليلة سعيدة سيدتي.

قامت بحساب جبري بمزدوجتين غير معروفتين، X و Y. وجدت المعادلة: X تساوي Y، وترجمتها إلى معطيات بسيطة: سياسة تساوي النقود. ثم ابتداء من هنا، بدأت تحاصر أبي. هل

هو غني؟ إذن كل شيء كان بسيطا. رجل غني يعرف أو المفروض فيه أن يعرف أو عرف السياسيين الحاليين، الماضين والمستقبليين في هذا البلد. أجرت بعض المكالمات الهاتفية وأصبح المنزل ملتقى بصوتين: صوت الرجل السياسي المدعو وجها لوجه، وصوت أمي. أبي وأنا، كنا ندفع الصحون ونقدم القهوة.

هل قلت إن أمي كانت خائفة مما يقع في العالم؟ لا، أليس كذلك؟ لم تكن خائفة بتاتا من الكلمات. وراء الكلمات كانت تبحث عن الحقيقة، ثم وراء نكران الذات، كانت لا تجد أحدا. كانت تدق كالصمّاء على أبواب الأحزاب السياسية، «هو لا! هل يوجد أحد هنا؟»، كانوا مضطرين إلى أن يفتحوا لها ثم عندما يفتح الباب، كان يتعين الإجابة عن تساؤلاتها. كان باستطاعتها إرجاع الكلمات حتى الأحشاء، كجلود الأرانب. البيانات، الإحصائيات؟ أمي تؤكد. أعطوها لي وسأكتب رواية بوليسية أو حكاية بلا معنى، حسب الاختيار. لا شيء، هل تسمعون، لا شيء يمكن أن يصمد أمام هذا العري الفاضح للرجال الفقراء العجزة الذين يريدون الكرامة الآن وليس غدا أو فيما بعد.

تتحدث مع الديمقراطيين، المحافظين وهؤلاء الذين تسميهم «التقدميين الذين يجرون إلى كل الاتجاهات». بكل كياسة، من دون كثير من التألق. أبي كان هناك يرافق الزعماء، يعدهم بالمساهمة في صناديقهم الانتخابية. وأنا، كنت أضحك، كان ذلك يثير بهجتهم، وكنت لا أدري لماذا.

مع مر الأسابيع، لم يعد أحد يأتي إلينا. حتى رجال الأمن الذين كانوا يحرسوننا فكوا الحصار. بقيت أمي هناك،

مـــع أفكارها، بحماســها، بعطشــها للحقيقة مــن أجلها، وحيدة. أصبحت جفونها ثابتة وعيونها أكثر جفافا. أبي يرد على الهاتف مســاء وصباحــا، يومئ برأســه، يكــرر مقاطع كلمات طـوال بقاء السـماعة علــى أذنه، كان يبدو محبطا، كأن محســنين يشــفقون عليه حين يعطونه الأخبار عن زوجته النزيلة في ملجأ خيري.

* * *

أمي نجحت في كل امتحاناتها، حتى امتحان قيادة السيارة. قصت شعرها وأهدته إليّ، كومة شعر في صندوق.

- من أجل ذكريات الماضي، قالت لي.

إلى أبي، أهدت شــهاداتها ملفوفة بخيوط مذهبة. ثم أعلنت لنــا موعد ذهابها. نعم، هكذا قررت، فجأة، تحت خوذة الصالون. لــم نتعــشَ تلك الليلة. لم نغمض أعيننا تلــك الليلة. كل الليل، ســاعدناها في شــد الحقائب، بينما كانت تبكي، تدخن، تضحك، تنفجر من جديد بالبكاء، تشــرح لنا سبب ذهابها، كم من الوقت ســتغيب وماذا علينا فعله في انتظارها، ثم، أليس كذلك، ســأرى ولــدي هنــاك، ســأتأكد إن كان ســعيدا، سأكتشــف ذلــك العالــم الغربــي، أنا في حاجة إلى اســترجاع أفقــي، أن أعاين، وأن أعمل بيانا، «أوه، حبيبتي، يقول أبي».

- «لا تهتمــي أمــي الصغيــرة، أجبتهــا بصداي»، كنــا، الواحد والآخر، كبارا بلحمنا ودمنا، وأصواتنا خشنة كالخشب.

أبي، رفض مصاحبتها إلى الميناء. رأيته يقبلها، هنا، بالقرب من الجمرك، بكل ســرعة، كأنه كان خائفا أن تخونه الأحاســيس ودموعــه أمــام النــاس. وهــرب بأكبــر ســرعة. أنــا، تعاركــت مــع

الحمالـين، وعمال الميناء، والربابنة. أدخلت وحدي أمتعة أمي وجلست فوقها، داخل المقصورة. وهناك، أعطيتها آخر التعليمات مع أخذ كامل وقتي. عندما اهتزت الباخرة على صوت الصافرة، أمي ضمتني إلى صدرها.

- إلى اللقاء، يا ولدي. بسرعة، أسرع، سيجرون الحبل.

انفجرت ضاحكا.

- نعم، امممي، سمعت ذلك المنبه القديم.

- أسرع، هيا، عوض أن تضحك كالحمار. سننطلق في دقيقة او اقل.

- نعم، امممي، سنذهب. أنا فهمت جيدا.

نزعت نعلي وذهبت لأستلقي على الفراش.

- لكن ماذا.. ماذا تفعل؟.. لن تذهب معي!

- بلى، امممي. أخذت تذكرة، أنا كذلك. رتبت كل شيء مع أصدقائي الذين سيهتمون بصديقاتك وأبي لن يكون محتاجا إلى أحد، لن يقع له أي شيء، صدقيني. أليست فكرة هائلة؟

أعطتني صفعة مدوية وحينها لقفت تلك اليد التي ضربتني، وقبلتها بحرارة.

- أنت بليد! بليد، بليد! مائة مرة أنت بليد!

- نعم، امممي، كل ما تريدين، أعطني قلمك. سأكتب، لكن البليد سيذهب معك.

كان وجهها مواجها وجهي، ملتصقا تقريبا. بقينا هكذا حتى تحركت الباخرة.

- أعطني سيجارة.

- نعـم، امممي. بكل سـرور. تفهمين، أمــي الصغيرة، ربما في هـذا العالم المجهـول الذي نحوه تتجهين سـتحتاجين إليّ يوما ما.. إيه طيب! لا تقولي شيئا؟

أجابتني بهدوء، وهي تقطّع الحروف:

- كنـت أشـك في أن تقوم بعمل غبي من هـذا النوع. نعم، أنا مسرورة بأن تأتي معي.

- إذن، تساعدينني، هيه، امممي؟

كيف ذلك؟

- بـأن تدفعـي هذه التذكرة. أنا بطريقة ما راكب سـرّي وأنت لا تريدين السـفر مع محتال، أليس كذلك؟ أم تريدين أن أذهب لأتكسّب في قاعة البوكر على السطح، بعرق جبيني؟

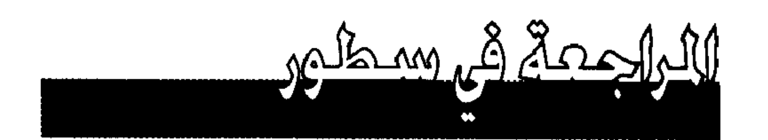
- أوه! أنت!.. أنت !.. أنت!

كـم كانـت ضحكتها بلورية، يـا ربي، مؤثرة، تعكسـها النافذة المفتوحة، على امتداد عرض البحر !



سعيد بلمبخوت

- من مواليد إقليم الجديدة - المغرب، العام 1959.
- حاصل على الشهادة الجامعية من كلية الحقوق بمدينة مراكش.
- اهتـم بقـراءة القصص والروايات منـذ الطفولة، حتى طغى اهتمامـه بالأدب على تخصص دراسته.
- كتـب بالفرنسـية رواية «عطـر الدفلي» و«لحظـات عابرة»، كما لديـه تحت الطبع مجموعـات قصصيـة باللغة العربية تحـت عنوان «همـس الرياح» و«عبيـر التراب» ومجموعة شعرية باللغة الفرنسية.
- نشرت له في المجلات عدة مقالات وقصص قصيرة وقصائد.
- اهتـم بالعمل الاجتماعي، شـارك في تأسـيس جمعية تكافـل، والجمعية البحرية، وجمعية مازكان.



أ. إيمان خالد المسلم

● كويتية، من مواليد العام 1956.
● حاصلة على ليسانس آداب لغة فرنسية من جامعة بغداد العام 1978، وماجستير التربية في المناهج وطرق التدريس من جامعة الكويت العام 1997.
● حاصلة على وسام السعفات الأكاديمية الفرنسية من درجة فارس في مستويات السعفات الأكاديمية بقرار من الحكومة الفرنسية العام 2002.
● عضو في جمعية أعضاء AMOPA في باريس العام 2002.
● أدرج اسمها في موسوعة «أعلام الكويت» الصادرة عن دار الحدث العام 1997، كما أدرج اسمها في قاموس السعفات الأكاديمية الصادرة في باريس، دار Faucon (2003 - 2004).
● عملت في تدريس اللغة الفرنسية منذ تخرجها.
● شاركت وأشرفت على العديد من اللجان الخاصة بمناهج اللغة الفرنسية.

ما صدر من هذه السلسلة

314 حياة إنسان — تأليف : ليونيد أندرييف
315 دون كيشوت — تأليف : ميخائيل بولجاكوف
316 واحدة بعد أخرى تتفتح أزهار البرقوق — تأليف : كنيث ياسودا
317 ملحمة علي الكاشاني — تأليف : خلدون طائر
318 نون و القلم — تأليف : جلال آل أحمد
319 سيري سامبيجي — تأليف : تشاندرا سيخار كامبار
320 أيام بورمية — تأليف : جورج أورويل
321 ست وصايا للألفية القادمة — تأليف : ايتالو كالفينو
322 السكرتير الخصوصي — تأليف : ت. س. إليوت
323 قصص برازيلية — تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين
324 شذرات من خطاب في العشق — تأليف : رولان بارت
325 لون الماء — تأليف : جيمز ماكبرايد
326 وجهان لحواء — تأليف : أمريتا بريتام
327 المنزل ذو الشرفات السبع — تأليف : اليخاندرو كاسونا
328 من الأدب الباكستاني الحديث — تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين
329 مختارات من القصة التركية المعاصرة — تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك
330 مسرحية محكمة العدل في بلخ — تأليف : بهرام بيضائي
331 مطبخ - خيالات ضوء القمر — تأليف : بنانا يوشيموتو
332 الطباخون الأشرار - الجرة المكسورة — تأليف : جونتر جراس
333 شمل تشابه ضائع — تأليف : هاينرش فون كلايست
334 حكايات الهنود الأمريكيين و أساطيرهم — تأليف : أندريه شديد
335 زهرة الصيف — تأليف : فلاديمير هلباتش
336 طام - طام زنجي — تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين
337 اليبروح — تأليف : ليوبولد سيدار سنغور
338 منزل النور — تأليف : نيكولو ماكيافللي
339 كثبان النمل في السافانا — تأليف : جوهر مراد
340 أناتول وجنون العظمة — تأليف : تشنوا أشيبي
341 غرام ميتيا — تأليف: أرتور شنيتسلر
342 آرنجندن والحارس الليلي — تأليف: إيفان بونين
343 ورقة في الرياح القارسة — تأليف: فيمي أوسوفيسان
344 مدرسة الدكتاتور — تأليف: تنغ - هسنغ يي
345 رسائل عيد الميلاد — تأليف: إيريش كستنر - تيد هيوز
346 حكايات وخرافات أفريقية (1) - الطفل الملك — تأليف: سليمان جيفو ديوب
347 مسرحية عذراء أورليان — تأليف: فريدريش شيللر
348 حكايات وخرافات أفريقية (2) الأدغال والسهول العشبية تحكي — تأليف: سليمان جيفو ديوب

ما صدر من هذه السلسلة

ما صدر من هذه السلسلة

374	مختارات من الشعر الإيراني الحديث	تأليف: مجموعة من الشعراء الإيرانيين
375	العقرب وقصص أخرى (الجزء الأول)	تأليف: بول بولز
376	العقرب وقصص أخرى (الجزء الثاني)	تأليف: بول بولز
377	«الأسيرة» (مختارات من ديوان شعر)	تأليف: فروغ فرخزاد
378	شارع بريك لين (الجزء الأول)	تأليف: مونيكا علي
379	شارع بريك لين (الجزء الثاني)	تأليف: مونيكا علي
380	الطريق (رواية)	تأليف: كورماك مكارثي
381	مختارات من القصص القصيرة الأوزبكية	تأليف: مجموعة من الأدباء الأوزبك
382	عشيق الصين الشمالية (رواية)	تأليف: مارغريت دوراس
383	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الأول)	تأليف: إرنست همنغواي
384	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثاني)	تأليف: إرنست همنغواي
385	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثالث)	تأليف: إرنست همنغواي
386	النمر الأبيض (رواية)	تأليف: آرافيند آديغا
387	موطن الألم (رواية)	تأليف: دوبرافكا أوجاريسك
388	فيلا أماليا (رواية)	تأليف: باسكال كينيارد
389	الإحساس بالنهاية (رواية)	تأليف: جوليان بارنز
390	ياسمينة (وقصص أخرى)	تأليف: إيزابيل إبرهاردت
391	المغامرة الغامضة (رواية)	تأليف: شيخ حامد كَان
392	الرجال الذين يحادثونني (رواية)	تأليف: أنائدا ديفي
393	أنطولوجيا القصّة الإيرانية الحديثة	تأليف: مجموعة من الأدباء الإيرانيين
394	حكايات حكماء أفريقيا وأسطورة نجدو ديوال	تأليف: أمادو همباطي با
395	خرائط (رواية)	تأليف: نور الدين فرح
396	إله الصدفة (رواية)	تأليف: كريستن توروب
397	أزهار عباد الشمس العمياء (رواية)	تأليف: ألبرتو مينديس
398	الأبدية بعيدة جدا (وقصص أخرى)	تأليف: تيه نينغ
399	اذهب حيث يقودك قلبك (رواية)	تأليف: سوزانا تامارو

الحضارة أمي

في هذا العدد، نقدم للقارئ الكريم رواية مشوقة تنقلنا من زمن الطفولة إلى أحلام المستقبل، وهي رواية «الحضارة أمي»، للكاتب المغربي إدريس الشرايبي.

يسلط الكاتب الضوء على أمه، ويصفها بكل تفاصيلها، ويظهر حنانها وإنسانيتها وبساطتها. يحاول بطل الرواية (الراوي)، مع أخيه، مساعدة أمهما على الخروج من عزلتها والاطلاع على العالم الخارجي. فتبدأ الأم في اكتشاف العالم الذي لم يكن بعيدا عنها، وتبدأ بمقارنة العالم بعالمها التي ظلت حبيسة فيه مدة من الزمن بسبب العادات التي فرضها عليها زوجها البرجوازي.

ومع خروج الأم إلى عالمها الجديد تحدث لها نقلة نوعية في حياتها وشخصيتها، من إنسانة جاهلة إلى متعلمة، من شخصية منغلقة إلى امرأة لها اهتمامات اجتماعية وسياسية. أحداث مشوقة سيتنقل القارئ بين تفاصيلها في هذه الرواية.

رقم الإيداع: 2014/152
ردمك: 978-99906-0-419-1



الحضارة أمي

في هذا العدد، نقدم للقارئ الكريم رواية مشوقة تنقلنا من زمن الطفولة إلى أحلام المستقبل.

وهي رواية «الحضارة أمي»، للكاتب المغربي إدريس الشرايبي.

يسلط الكاتب الضوء على أمه، ويصفها بكل تفاصيلها، ويظهر حنانها وإنسانيتها وبساطتها. يحاول بطل الرواية (الراوي)، مع أخيه، مساعدة أمهما على الخروج من عزلتها والاطلاع على العالم الخارجي. فتبدأ الأم في اكتشاف العالم الذي لم يكن بعيدا عنها، وتبدأ بمقارنة العالم بعالمها التي ظلت حبيسة فيه مدة من الزمن بسبب العادات التي فرضها عليها زوجها البرجوازي.

ومع خروج الأم إلى عالمها الجديد تحدث لها نقلة نوعية في حياتها وشخصيتها، من إنسانة جاهلة إلى متعلمة، من شخصية منغلقة إلى امرأة لها اهتمامات اجتماعية وسياسية. أحداث مشوقة سيتنقل القارئ بين تفاصيلها في هذه الرواية.

رقم الإيداع: 2014/152
ردمك: 978-99906-0-419-1





إدريس الشرايبي

- من مواليد العام 1926، مدينة الجديدة - المغرب.
- تابع دراسته في الدار البيضاء في ثانوية تابعة للبعثة الفرنسية، ثم انتقل إلى العاصمة الفرنسية لتحقيق حلم والده في دراسة الهندسة الكيميائية وتخرج العام 1950، بعدها اتجه إلى الكتابة.
- درس أيضا الأدب المغاربي بجامعة لافالا بكندا، انضم إلى اتحاد كُتاب المغرب العام 1961.
- حصل على جائزة أفريقيا المتوسطية على مجموع أعماله، وعلى جائزة الصداقة الفرنسية - العربية العام 1981، وجائزة «مونديللو» الإيطالية على ترجمة لكتاب «مولد الفجر في إيطاليا».
- عمل في الصحافة، وبإذاعة «فرنسا الثقافية» (France Culture).
- من أعماله: «الماضي البسيط»، «التيوس»، «من كل الآفاق»، «الحشد»، «إرث مفتوح»... وغيرها.
- توفي العام 2007.